بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

شَيْخَنا المَجْدَ

هَذِهِ أَوراقُ رَقَّنْتُهَا تَحَدُّثًا بِنِعمَتِ اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه عَليَّ أَنْ جَعَلَنِي رَبِيبَ فِكرِك وَبَيانِكَ وَوَلِيدَ حَزمِكِ الرّؤُوفِ وَغَرْسَ يَمِينِكِ المُبارَكِ الدَّافِقِ بِجَلِيلِ العَطايَا .

لَمْ أَجِدْ سَبِيلاً أَسْلُكُهُ إِلَى التَّحَدُّثِ بِهذِهِ النِّعْمَتِ الماجِدةِ الجَلِيلةِ ، وإلى عَظِيمِ شُكرَانِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ عَلَيْها ، سِوَى أَنْ أُرَقِّنَ هِذِهِ الأَوراقَ ، فإنَّ مِن أَجلِّ نِعَمِ اللهِ سُبْحانَه وَبِحمدِه عَلَى طالِبِ العِلمِ بعدَ نِعمتِ الإيمانِ بما أمرَ الله تعالى الإيمانَ بِهِ أنْ يُقيّضَ لَهُ شَيْخًا يحمِلُه بِعِلمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَحَزْمِهِ وَرَأفَتِهِ إِلَى رِياضِ العِرفانِ بِكِتابِ اللهِ تعالى وَبِسُنَّةِ رَسُولِهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

فَأَنتَ شَيْخَنَا مِنْ جَلِيلِ نِعمَتِ اللهِ تعالى عَلَينا ، فَلَهُ الحَمدُ وَالشُّكْرانُ أَن أَجْرَى إِلَيْنا عَلَى يَمِينِكِ الْمُبارَكَةِ نِعمَتَ طَلَبِ الْعِلْمِ بِكِتابِهِ تعالى وَبِسُنَّةِ رَسُولِهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

كَأَنّي أَرَى أنّ اللهَ تعالى نَخَلَ جِيلَكَ الماجِدَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَوَجَدَكَ فَرِيدًا فَآوَاكَ لَنَا وَاصْطَفَاكَ لِيُفهِمَك عنه أسرارًا من بلاغة كتابِه وسنة رسُولِه صلّى الله

عَلَيْهِ وعلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسلّمَ ، فَأنْعَمَ بِكَ عَلَيْنَا . فَكُنْتَ الْغَيْثَ وَكُنْتَ النِّعمَتَ الَّتِي لا تَشْغَلُنَا عَن الْمُنْعِمِ ، بَلْ الّتِي تَشْغَلُنا بِالْمُنْعِمِ سُبْحانَه وَبِحمدِه فَكُنْتَ المُتَصاعِدَ بِنا مِنْ طَوْرِ الإِنْسانِيَّةِ المُتسَاقِطِ الخسُورِ إِلَى أُفُقِ الآدَمِيَّةِ الرَّحِيبِ الرّبِيحِ المَجِيدِ .

مَا أنَا بِهذا بِالمُطرِيك فِي وَجهك وأنّى لِي أنْ أفعَلَ وقدْ نَهَانَا سَيِّدُنا رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ وعلَى آلِه وصَحبِه الصَّلاةُ والسَّلامُ عَنْ ذلك ؟!!!

إنّما أنَا مُتذكّرٌ ومُذكّرٌ بِنِعمَتِ اللهِ تَعالَى عَلَيْنَا لعلَّنا نشْكُره ونحمدُه عليها بلسانِ الحالِ قبل لسانِ المقالِ .

وَأَسْأَلُهُ سُبْحانَه وَتَعالَى أَن لايَحْرِمَنَا مِنْ بَقَائِك َ فِينَا إِمامًا تُدخلُ بِنا علَى ربّنا بِعلِمكَ وَحِكْمَتِكِ وَحزْمِك وَرَأفَتِكَ

وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَرفَع بِالقُرآنِ العَظِيمِ ذِكرَك بيْن عبادِه الصّالِحينَ الْمُصْلِحينَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ . وأن تنْعَم عينُك وقلبُك بعملك المسترْضى وولدك الصّالح وأهلك وتلاميذِك وغرسِ يمينِك إنّه وَلِيّ ذَلِك وَالقَادرُ عَلَيْه وَالْمُتَفَضِّلُ بِه .

وَالْحَمْدُ لِلهِ ربِّ العَالَمينَ .

وكتبه

المفتَقِرُ إلى سَترِ اللهِ تعالى ورِضْوانِهِ

وليدُ عقلِك وربيبُ حَزمِكَ

مَحمُود تَوفِيق مُحَمّد سَعْد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العَالمين حَمْدًا كثِيرًا طيِّبًا مُباركًا فِيه كَمَا يُحبُّ ربّنا ويَرضَى اللَّهم صلّ وسلمْ وباركْ علَى عبدِك ونبيِّك ورسُولِك سيّدِنا مُحمّدٍ وعلى آلِه وصحبِه وورثتِهِ مِن أهلِ العلم وأمَّتِه أجمعين كما تُحِبُّ ربّنا وترضَى إنَّك حمِيدٌ مَجيدُ .

أمّا بعدُ ، فإنّه لَمِمَّا ينفعُ النّاشئة في طَلبِ العلم أن لا يُكتفَى بِأنْ يُبيّنَ لَهُم مقَالاتِ أهلِ العلمِ في أسفارهم تفصِيلاً وشرحًا ، بل حقٌّ لَهُم أنْ يُبَصَّروا شيْئًا مِن مِنهاج أُولئك الأعيان مِن العلماءِ في التَّفكيرِ والتَّعبيرِ ، ولَفتُهم إلى ما يَشغَلُ قلوبَ أولئك الأعيانِ ، وما يَمْلأ صدورَهم مِن المُجاهدَةِ فِي سَبيلِ الله سُبْحانَه وبِحمدِه بِمَا مَلكَهم مِن نِعمِهِ عَليْهم .

إذا مَا بُصّرتْ النَّاشئةُ شيئًا من مِنهاج العلماء تفكيرًا وتعبيرًا وشيئًا ممَّا يُؤرِّقُهم ، ويَبعثُهم إلى نشرِ الكلمةِ «النور» والكلمةِ «السّيف» كان ذلك أنفعَ لأولئك النَّاشئةِ ؛ لِيعلمُوا كيْف يُصنَع الرّجالُ الّذين يَصنَعونَ العَدْلَ والخيرَ والمَجْدَ .

مِنْ ذلِك انْبَعثْتُ إلَى كتابةِ هذِه الوُريْقاتِ في بيانِ شَيْءٍ مِن مِنهاجِ شَيْخِنا شيْخِ البَلاغيّين العَرب أستاذَنا الشَّيْخ أبي أحمد مُحَمَّد أبِي مُوسَى عزّه اللهُ تعالَى بطاعتِه ، ورِضوانِه ، فِي شرحِه أَحادِيثَ مِن صَحيحِ مُسْلِمٍ : دراسَةٌ فِي سَمْتِ الكَلامِ الأَوّلِ

وهُو كتابٌ له طابعٌ خاصٌّ شكَّلته حركةُ الحَياة مِن حولِه ، وقد أَحاطتْ بالشَّيخِ همومُ الأمّةِ عامَّة ، وهُمومُ «مِصْرَ» خاصّة ، فرَأَتْ عينُه وسَمِعَتْ أذنُه وَفَقِه فُؤادُه ما كان مستفزًّا له إلَى ما رَقن فِي هذا الكِتابِ المستفزّ قارئه إلى أن يكونَ سيّدًا في النَّاسِ والكونِ والحياةِ لا مُسْتَنْعَجًا يُسْحبُ إلى مَهلَكِهِ

في هذا الكتابِ ترَى الأمَّةَ المُسلِمَة عَامّة ، وتَرَى «مِصر» خاصَّة حاضِرةً فِي كُلّ فِقرَةٍ مِن فِقر الكِتابِ ، يُشخِّصُ الشَّيخُ داءَها ، ويُعيّنُ دواءَها فِي ضَوْءِ بيانِ النُّبوّةِ الغذاءِ والشفاءِ والنّورِ .

أرَى الشَّيخَ مِن خِلالِ سِفرِه مُوقنًا أنّ بيانَ النّبوَّة إذا قُرِئ فِي سِياقِ واقع كلّ عَصْرٍ ومِصْرٍ ، وكان القارئُ ذا قلبٍ سليمٍ سَمِعَتْ أذنُه النَّبيَّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ يُخاطبُه هُو ، ورأَتْ عَينُه النّبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ قائمًا فينا ، وكأنَّه واحدٌ مِنْ عَصرِنا ومِصرِنا ، يؤذن فينا : إنَّ غيرَكم مِن الأمَم ينتظرُ «المُخلّصَ» أمّا أنْتُم أصحابَ سُورةِ «البقرةِ» وسُورة «الجُمُعةِ»... فإنَّ مخلّصَكم قائمٌ فِيكم لا يُفارقكم أبدًا يراهُ مَن كان ذا بصيرةٍ .

«مُخَلِّصُكم» هُو الكِتابُ والسّنّةُ . «قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّهِ .» . (مسلم : الحج)

في رواية للحاكم في المستدرك : «إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ﷺ» صححه الألباني في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب .

أنتم به أصحابَ سُورةِ «البقرةِ» و«الجُمعةِ» المُخلّصون غيرَكم ممَّا هم مُتَكَبْكِبُون فيهِ .

والصَّادون عن سبيل الله تعالى يعلمون علم يقين أن مجدكم من إسلامكم ، ويعلمون أنه لاطاقة لهم بكم وأنتم به معتصمون ، فاتخذوا إلى إخراكم منه ثلاث مراحل :

- تغريبُ الإسلامِ الحَقّ
- تَغييبُ الإسلام الحقّ
- تجريمُ الإسلامِ الحَقّ

قَدْ فرَغُوا من الأولَى مُنذُ عقودٍ ، وتجاوزُوا مُنتصفَ الثّانيةِ أوْ أكثر ، ومِنْهم فِي « مِصْر » الأزهر فسْطاط علومِ الإسلام وعلمائِه مَن خَطا في الثّالثة خطواتٍ وسيعةٍ علَى ما تراَه العينُ وتسمعه الأذنُ ، ويسْقُمُ به القلبُ .

هذا الواقعُ الدَّامِي كان حاضراً في تفكيرِ الشّيخِ وتعبيرِه في هذا السِّفر الجليلِ ، وكان الصَّانِعَ رؤيتَه هذا البلاغَ النَّبويّ ، والصَّابِغَ تذوقَه لفنونِ هذا البيانِ على نحوٍ أنا لم أبصرْ مثله في أسفارِه الماجدة السَّابقة بالخير .

لذا رأيتُ أنَّ سفرَه هذا هو أولَى أسفارِه بالقراءةِ والفهمِ الآن ، نزولاً على وجوبِ القيامِ بِفريضةِ الوَقت .

نحنُ جميعًا أحوجُ إلى قراءةِ هذا السّفر قراءةً تتغوّرُه ، وتتفرَّسُه ، لتُبصرَ قلوبُنا ما ينبثقُ مِنه أشعةً تضيئُ لنا جنباتِ الطَّريقِ وثبجَه .

وهذه الأوراقُ تسعَى إلى إنْ تتبَصَّرَ منهاجَ الشَّيخ في القِراءةِ والتَّفكيرِ والفَهم أكثرَ من عنايتها برؤيةِ قضايا البلاغةِ ومسائِلِها كما نفعلُ في قراءةِ أسفارِه الأولَى التي بثّها فينا في باكرِ الزَّمان . .

وهذه الأوراقُ تسعَى لرؤيةِ الشَّيْخِ ومنهجِه في تهديمِ أركانِ الباطل ، وتشْييدِ أركانِ الحَقِّ والخيرِ مِن خلالِ شرحِه أحاديثَ مِن صَحيحِ مُسلِمٍ .

ولولا ضيقُ العَطن ، ووهَنُ العزمِ لكنتُ مُنتصِبًا إلى ما هُو أوسعُ وأعمَقُ ، ولكنّي قد فقدتُ كثيراً مِن العَزمِ والتَّحمّلِ ، وما تَراه في هذه الأوراقِ إن هُو نزيرٌ ممَّا يستحقُّه سِفرُ الشَّيخِ مِن العِنايةِ والاحتفاءِ الفِكريّ بما فيه .

وهذه الأوراقُ تُضطّرُ في غيرِ قليلٍ مِن المَواطِنِ إلى نقلِ عيْن مَقالة الشّيخِ فِي هذا السّفرِ ، وإن طالتْ ولاسِيَّما في مواضعَ لا يصلُحُ فيها تخليصُ بيانِه مخافةَ أن لا يكونَ هذا السّفرُ بيْن يديْ قارئِ أوراقِي ، فإن جِئتُ بتخليص كلامِ الشَّيخِ بِعبارتِي أفسدتُ على القارئِ الفائدةَ الّتي أرجُوها له مِنْهُ فيؤتَى مِنْ قِبَلَى ولا أُريدُها له أو لغيرِه . .

وقد أنقلُ عيْنَ كلامِه لأعلِّق بأقتابِه ما يبسُطُ مجمَلَه أو نحْو ذلك ، فلا يُغني عَن ذكرِ نَصٍّ بيانِه شيْءٌ من كلامِي ، فأُحمَلُ على ذلك حَملاً ، وإنْ طال النّقلُ . قد أنقلُ شيْئًا من بيانِهِ لِما أرغبُ في إيقاعِه بحروفِه في سَمعِ القارئ وقلبِهِ ، لما أراهُ فِي بيانه بحروفِهِ من الدَّقائقِ واللّطائفِ تفكيرًا وتعبيرًا . وقد أُحْمِلُ ـ غيرَ مُخْتارٍ ـ على إعادةِ ذكر شَيءٍ من بيانِهِ فِي مواطنَ عدّة مِن أوراقِي هذِه فِي كلِّ موطن منها ما يقتضِي إعادة ذكره .

وهذا أرمِي به إلى بيانِ أنَّ للقَولِ المُعادِ جهاتٍ عدّةً يُمكِنُ أن ينظرَ إليْه منها لفتًا لطلابِ العِلم أنْ لا تكونَ علاقتُهم بنصٍّ ما مِن جهةٍ واحدةٍ ، فالسَّعيُ إلَى الإحاطةِ بجهاتٍ عدّةٍ مِن القَولِ مِن أصولِ النَّظرِ العِلميِّ ، فالاستقراءُ الذي هو مفتتحُ منهجِ البَحثِ العِلميّ له مجالاتٌ ثلاثة :

المجالُ الأول : استقراءُ مصادرِ القضيَّة ومراجعِها قديمِها وحديثِها والتَّطهّر مِن مَعرَّة الاكتفاءِ بِمصدَرٍ عَن مصدرٍ كمَا يستْسهْلُه غيرُ قليلٍ مِن النَّاشِئةِ مِن طلابِ العِلمِ .

وطالبُ العِلم الحقُّ هوالَّذي يَحمِلُ مِن كلِّ كتاب ما ينفعُه ، وإن كان نفعًا سلبيًّا أي نفعًا مِن جهةِ ما جعلَ الكِتاب غيرَ جوادٍ ، فمعرفةُ أخطاءِ الآخرين وما حَاجَزَهم عن التَّميزِ والإفادةِ من أنفع ما يكونُ لطالب العِلم على نحو ما عَلَّمنَا منهاجُ سيّدنا حذيفة بن اليمان رَضِيَ الله عنه السَّائلِ عَن الشَّرِ مَخافةَ

الوُقوعِ فيه . ويقيني أنّه ليس هنالك كتابٌ عقيمٌ البَتّةَ ، إنّما العقيمُ عقلُ من يقرأُ ، لا ما يُقْرَأُ .

المجالُ الثّانِي : استقراء المادّة العلمية للقضية محلّ البحثِ العلميِّ في كُلّ مصدرٍ ومرجِعٍ ، فلا يُستغنَى بمادَّةٍ عن مادَّةٍ ، لأنّ الموادَ العِلميّة لا تُستنسَخ ، لِما للسّياق الّذي أعيدَ ذكرُها فيه مِن أثرٍ في ما تحملُه مِن الحَقائقِ العِلميَّةِ ، والرُّؤَى المَعرفِيّة

المجالُ الثالثُ : استقراءُ تَحليلِ كلّ مادّةٍ ممّا استقرئَ بِحيثُ لا يُستغنَى ، فالسّعيُ إِلَى استفراغُ المادّة العِلميّة ممّا هو مكنونٌ فيها فَريضةُ علَى كلِّ باحثٍ عن الحقائق والكليَّاتِ وكذلك العملُ علَى استقراءِ تَأويلِ المادّةِ العلميَّة وتعليلِها بعدَ تحليلِها

والبحثُ العلميّ لا يعرفُ أُلعُوبة «النَّمْذَجَة» : الأخذَ مِن كلّ شيْءٍ بطرفٍ ، ولا سيّما في بلاغة البيان .

إن الاكتفاء بأنموذجٍ في البحثِ العلميِّ إنّما هُو فعلُ الصّغارِ الذين لم يُؤخذوا بالحَزم الرَّؤوف على أن يَنحتُوا من الجبالِ بيوتا . فإنَّ أَجودَ الأعمالِ بالعطاءِ وأسخاها أحمزُها .

وبِرَغمٍ مِن كلّ ذلك ، فهذه الأوراقُ ليْست بحثًا علميًّا صِرفًا ألتزمُ فيه بكلِّ أصولِه في الإبانةِ والإفهامِ ، وبِكلّ أدبياتِه التَّعبيريّة ، بل هو عملٌ علميٌّ مَمزوجٌ به ما رأيتُ الافتقارَ إليْه مِن تثقيفِ النَّفسِ ، وتزكيتها ممّا يُحيطُ بها من مُنكراتِ يَجتهِدُ سَحرةُ إبليسَ إيغالها فيها ، فكان للتّحصِينِ ، والتَّثويرِ نَصيبٌ ، ولا سيّما في هوامشِ الصَّفحاتِ على الرَّغم مِن علمِي الوثيقِ بأنَّ هذا غيرُ نازلٍ على أصولِ لغةِ البحثِ العلميِّ ، فإن تقديمَ حقّ الأمّةِ فِي سِياقِها هذا مقدَّمٌ عندِي في

هذِه الأوراقِ علَى حَقِّ البحثِ العلميِّ ، ولولا هذا السِّياقُ الّذي أرقِّنُ فيه هذه الأوراقَ لكُنتُ غيرَ مُجْترِئٍ على ما اجْترأتُ عليْه .

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(البقرة:١٧٣)

ومن البيِّنِ لِمنْ يقرأ أسفارَ شيْخنا أنَّه ذو مَنهج في تصوّره وتفكيرِه وتعبيرِه ، وذومَنهجٍ في مقاصِده ومغازيه سواء كانَ الذي يقومُ فيه بيان وحي كتابًا وسنة ، أوبيان إبداعٍ شعرًا ونثرًا أو بيان علمٍ جادَ به علينا الأعيانُ من أهل العلم . وهو وإن كان له مقصدٌ رئِيسٌ ومغزًى متعيّنٌ نصبَ بصرِه وبصيرته لا يتخلّف في أيّ سفرٍ من أسفارِه ، فإنّ لكلّ سفرٍ مَع هذا المقصدِ الرّئيسِ مقاصدَ منسولةً منه بحسب كلِّ سِفرٍ ، ولكنّها جميعًا مِن رحم المقصِدِ الرّئيس . : صِناعة الرجال عقلاً ونفسًا وقلبًا ولسانًا وخُلقًا ومرامِيَ حياةٍ . وهي أثقلُ صناعة يُعالِجها الإنسان وأنبلُها ، وأنفعُها وأنجعُها . وما قصَّرَ الإنسانُ في شيْءٍ كمثلِ تقصِيرِه في الوَفاء بحقّ تلك الصِّناعة الثقيلة النّبيلة الجليلة[1].

همُّ شيْخنا صِناعةُ الرجال ، بكلِّ ما تحملُه هذه الكلمة مِن معاني عزَّة النَّفس وسّموّ المَقصدِ وزكاءِ المسلك مِن أوضارِ الإنسانيّة ، وبكلِّ ما تحملُه مْنْ معانِي مُناصرةِ الحَقّ بالحقّ ، وصناعةِ الخيرِ ونشرِه في النّاسِ كلّ النّاس .

---

(١) لعلّ أعظم ما كان سببًا فيما صَارت إلَيْه الأمة الإسلامية من الاستضعافِ والاسْتخفاف أنّها تهاونت في القيام بفَريضَةِ صِناعةِ الرجال على هدي من الكتابِ والسنة. فكانتْ على أهونِ خلقِ الله سُبْحانَه وبِحمدِه الذي قال الله جَلَّ جَلالُهُ قِي شأنهم : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة:٦٠) وأنت اليوم تسمعُ أذنُك وترى عينك ويتفطرُ قبلك بما لم يكن قبلُ في هذه الأمَّة من هوانٍ ومذلّةٍ.

أنت واجدٌ ذلك في كلّ ما يقومُ فيه وإن كانْ دراسة الكلمة الشّعر .

ترَى الشّيخَ وهُو يدْرُسُ الشّعرَ ويتذوقُه وينشرُ درسَه وذوقَه فينا طلاَّبَ العلمِ ظاهرًا استِخراجه منْه مقوّمات الرّجولة ، وإن كانتْ الكلمة الشَّاعرة شِعرَ غزلٍ[1].

هُو في كلّ ذلك له منهج ومذهبٌ في التَّصوّر والتّفكير واستنباط المكنون ، وتثوير المنكوز ، وتقويمِ العَوج ، وتسديدِ الخُلَل ، وتكميلِ النّقصِ وتبيينِ المُبهم ، وتفصيلِ المُجمل ، وتقويضِ المُفسِدِ ، وفِي مناصرةِ الحق بالحقّ وله منهجٌ في التّعبير عن كلّ ذلك .

---

(١) شِعرُ الغزلِ في الكلمة الإبداع في لسان العربية الماجد يوم كان أهله صناع مجدٍ شعرٌ لا يثورُ عوامل الحيوانية فِي الإنسانِ ، كان يلفته إلى ما في «المرأة» من عوامل استنباتِ الرجالِ والفرسان في أرحامهم ، كانَ يلفتُ إلى مقوماتِ فتوة الأنوثة التي تنبتُ في الأرحامَ قُوًى يصنعون المجد ويحمونه .

حديثُ الشاعر عن شعرها أو صدرها أو خصرها أو نحو ذلك إنما ليبين لك أنها فتاةُ لم يستهلكه العمر أو الحملُ وأنها منبت الفتْيانِ الفرسَان ، وكمثلها تكون المصطفاةُ لِصناعةِ الفرسان ، وهو غزلٌ يملأ نفسَ المرأة رضًا بتبصّر الرجل لأجلّ ما فيها وأجملها . ولذلك تطهَّر الغزلُ في شعر العربية مما تراه اليوم في شعر الهلكى كشعر نزارٍ وأحفادِه .

يقُول الشّاعر العربي لصَاحبته (زوجه) وقد لبست لَه ثوبًا قشِيبًا :

ألا حبّذا البُردَ الذى تلبسينه ... ويا حبذا من باعك البرد من تجر

فَلَوْ كُنْت مَاءً كُنْت مَاءَ غَمَامَةٍ ... ولَو كُنْت دَرًّا كُنْت مِنْ درَّة بِكْرِ

وَلَوْ كُنْت لَهْوًا كُنْت تَعْلِيلَ سَاعَةٍ ... وَلَوْ كُنْت نَوْمًا كُنْت إغْفَاءَة الفَجْرَ

ولو كنْت ليلاً كنْت قمراءَ جُنّبت ... نُحوسَ ليالى الشّهرِ أو ليلةَ القدرِ

من ذا التي تسمع ذلك من زوجها ثم لا تبتهج ابتهاجة تملأ الدنيا سرورًا وحبورًا؟

إنه الجمالُ المتولد من جلال الحياءِ والعفة

والشَّيخُ كما هُو شأن الكبار لا يـذكرُ لـك في مفتـتح أسـفارِه منهجـه فيمـا يكتبُ بل يدعك ـ وهذا غالبٌ على أمرِه ـ لتبصرَ بنفسِـك منهجـه ، وقـد أقـام عليْه ما قدَّمه إليْك ، فتستخرجَه بنفسِك ، فتأخذ حرًّا حكيمًا ما يروقك ، وتدع غيرَه لغيرِك[1].

وإذا ما كان للشيخ مقصدٌ عامٌّ رئيسٌ ، ومنهجٍ مُسْتتبٌّ وكان له في كلّ كتابِ مَقصدٌ خاصٌّ منسولٌ من المقصِد العامّ الرَّئيس ، وأدواتٌ يقيم بها منهجَه ، فإنّ مِن حقّه علينا قراءَه أن نتبصَّر ذلك في كلّ سفرٍ مِن أسفارِه لا لِنحملَ عنـه زادًا علميًّا من إنتاجه ، فحسبٌ بلْ لنتَعلّم منه كيف يسْتطعِمُ العلم ويَخدمه ، وكيف

---

(١) يقول الأستاذ الأكبر : محمود محمد شاكـر : «وببديهةِ العقلِ لَم يكـنْ مِنْ عَملِي ، ولا هُو مِن عَملِ أيّ كاتبٍ مُبينٍ عَنْ نفسِهِ أن يَبدَأَ أوَّلَ كلِّ شَيْءٍ ، فيفيضَ فِي شَرحِ منْهجِهِ فِي القِراءةِ والكتابَةِ «وإلاَّ يفعلْ كان مُقصّرًا تقصيرًا لا يُقبَلُ منْهُ ، بَلْ يُردُّ عَلَيْهِ «ثُمَّ يَكتُبُ بعدَ ذلكَ ما يَكتُبُ ، ليَقُولَ للنَّاسِ : هذا مَنْهَجِي ، وهَا أَنَذا قَدْ طَبَّقْتُهُ ، هذا سَّخفٌ مَريضٌ غيرُ معقُولٍ بَلْ عَكسُهُ هُو الصّحيحُ الْمعقُول ، وهُو أن يكتُبَ الكاتبُ مطَبقًا منْهجَه ، وعلَى القارئ والنَّاقدِ أنْ يَسْتشِفَّ الْمنْهجَ ، ويتبيّنَهُ ، مُحاولاً اسْتقصَاءَ وجوهِهِ الظاهرةِ والخفيّةِ ، ممَّا يجِدُه مطبقًا فِيما كتبَ الكاتبُ ، ولكنّ فسَادَ حياتِنا الأدبيّةِ هُوَ الَّذِي يُحِيلُ العُقُولَ أحْيانًا حتّى تَغفُلَ عَنْ أبسَطِ قَواعدِ البَديهةِ فِي العَقْلِ الإنسانيّ ، وكفَى بِهذا فسَادًا وَبِيلا . (المتنبّي : رسالةٌ في الطَّريقِ إلى ثقَافتِنا . مطبعة المتنبّي . نشر دار المدني ومكتبة الخانجيّ - القاهرة عام ١٤٠٧هـ . ص : ٢١،٢٢) ومن البيّن أن الذي ذهبُ إليْه الأستاذُ الأكبرُ مِن خطل تعيين المؤلّف منهجَه في مُفتتح كتابِه لا يجري في ما يعرفُ بالبحوثِ الجامعيّة من بحوث الماجستير والدكتوراه ، حيث تقضِي الأنظمة الجامعية بوجوب تعيين منهاج معالجة القضايا والمسائل ومذاهب العلماء وآرائهم ، ومناقشتهم في ذلك في مفتتح الرسالة ، فلا يدع الباحثون في مرحلة الماجستير والدكتوراه هذا لمقال الأستاذ الأكبر ، فذلك إنما يؤخذ به في الأعمال العلمية ، وليس في البحوث العلمية الجامعيّة .

يُبينُ عمَّا يجدُه منه في قلبِه ، فيُجريه على لسانِه . فالعالم صَانعُ الرِّجال إنَّما هُو عالمٌ في فهمِه وإفهامِه النَّاسَ بلسان حالِه ومقالِه . وهذا ما أحاول أنْ أُبين شيْئا مِنه ، لعلّي أجدُ منه أعزّه الله تعالى بطاعتِه ورضوانه وسترِه ـ ما يُقوِّمُ ما زللْتُ فيه فهمًا وإفهامًا ، فما أحوجنِي إليْه مِنه ومِن كلّ ذي قلبٍ بَصيرٍ .

وكل مُتَّخذٍ العلم فَهْمًا وإفهامًا رسالة حياة . وطريقًا إلى مرضاة ربه تعالى لهو المستشرفُ إلى ما يُسدَى إليه من الأشياخ وطلاب العلم تصحيحًا لخطأٍ ، وتسديدًا لخللٍ ، واستكمالاً لنقص ، وتطهيرًا من ضلالةٍ ولَهُو المُصْغِي لما يجودُ عليه به أهلُ العلمِ وطلابُه كيما يأتي صنيعُه القادِمُ أجودَ عطاءً ، وأنفذ في قلوب متلقيه ، فيكون له بذلك من صناعة الخير ونشره ما يرفع قدره عند الله تعالى في عباده الصِّديقين ، وتلك طلبة كل مشتغلٍ بالعلم النافع تلقيًا وخِدمة ونشرًا .

وكلّ مَن يضيق صدره بنقدِ أو نقص مقالِه في العلم هو أقرب إلى من يتخذ العلم سبيلاً إلى شهرة بين الدَّهاءِ وإلى استلاب متاع الدنيا ومن كان كذلك كان ممن تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة ، كما هدى بيان النبوة إن من حلية العلماء وطلاب العلم تبين الحق والصواب ومناصرته وإن كان ذلك في جانب غيرهم ، كان من حِلية الإمام محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤هـ) ما رواه الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢ هـ) في كتابه « توالي التأسيس » عن الحسن ابن علي الكرابيسي يقول : سمعت الشافعي يقول : ما ناظرت أحدًا قطُّ إلا أحببتُ أن يوفَّق أو يسدّد ويُعان ويكون عليه رعاية من الله وحفظ ، وما ناظرتُ أحدًا إلا ولم أبالِ بيّن الله الحقَّ على لساني أو لسانه » .

وعن أبي الوليد بن أبي الجارود يقول : « سمعت الشافعي يقول : « ما ناظرتُ أحدًا قطّ فأحببت أن يخطِئ » .

إن طلبة الشافعي هي تبين الحق على أيّ لسانٍ كان ذلك وفي هذا من الأدب ما نحن أحوج ما نكون إلى أن نتعلَّمه ونعلمه لطلاب العلم بلسان حالنا من قبل لسان مقالنا .

والله سُبْحانَه وبِحمدِه أسأل أنْ يقيمَنا في ما يُرضِيه عنَّا ، وأن يحملَنا إليه حملَ الكرامِ عليْه ، وأن يُحسنَ خاتمتَنا في الأمورِ كلِّها ، وأن يُصلِّي ويسلِّمَ ويباركَ علَى عبدِهِ ونبيِّهِ ورسُولِه سيّدِنا مُحمّدٍ وعلَى آلِه وأزواجِه وأصحابِه وورثتِه مِن أهلِ العلمِ وأمَّتِه أجمعين ، إنَّه وليّ ذلك والقادِرُ عليْه والمتفضّلُ به .

والحمدُ لله ربّ العالمين .

القاهرة : مدينة الشّروق **وكتبه**

almasry411@gmail.com **مَحمُود تَوفِيق مُحَمّد سَعْد**

openkandl.com

التَّمْهيد
مقاربات في مَنهجُ القراءة والتلقّي

مَوقِعُ المتلقّي ممّا يتلقَّى

إنَّ تجدّدَ حياةِ البيان البشريّ في موقفِ المتلقّيهِ منه ، هُو بغير متلقٍ فتيّ أمينٍ تنضبُ الحياةُ منه ، وبقدر امتلاءِ المتلقي بمهاراتِ التلقّي وأدواته وأدبياته يكونُ حظُّ البيان البشريّ من تجدّد الحياة ، وتجدّد فاعليتِه . أمَّا بيانُ الوحْيِ قُرآنًا وسنة فإن الله تعالى قد كَفلَ له الحِفظَ وديموميَّةَ العطاءِ الكريمِ الوَفير ما بَقِيَتْ الحياةُ .

وشارحُ «البيان» إنّما هو سفيرُه ، بلْ سفيرُ صَاحبِه ، فليس «البيانُ» إلا صَاحبَه ، فأنت الكلمةُ الّتي تصنعُها في قلبِك ، وتجريها في لسانِك ، وأنت إذْ تحدِّثُ أحدًا فإنّما تريدُ أن تغزوَ قلبَه ، أنْ تنفذَ في صدرِه على مَتن الكلمةِ ، وليس عزيزًا مَن يفتحُ سمعَه لكلّ كلمةٍ مِن قَبلِ أن يعلمَ حقيقة مَن يقذفُها في سمعِه

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ (الإسراء:٣٦)

شارح «البيان» سفيرُ صاحبِهِ إليك ، وقيمةُ السّفارةِ تتحقّقُ بأمرَيْن رئيسَيْن :

- الأوَّلُ : قيمةُ «البيان» في نفسِهِ .
- والآخرُ : قُدرةِ الشّارحِ على القِيامِ بِحقّ السّفارةِ

من يقومُ إلى شرحِ حديثِ رسولِ اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ عليْه أن يقُومَ في قلبه قيامًا مكينًا أَنَّه رسُولُ رسُولِ الله عَلَيْهِ وعَلى آلِه وصَحبِهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى المتلقّين

عليْه أن يكونَ مليكًا لمهارةِ حملِ الرِّسالةِ وأدائِها .

عليْهِ أن يتّسِمَ فهمُه بالتغوّرِ والامتدادِ والضَّبطِ .

عَلَيْهِ أن يتّسِمَ بيانُه بالصّدقِ والأمانةِ والفُحولةِ .

عليْهِ أن يقومَ في قلبِهِ قيامًا مكينًا أنّه يَحملُ إلى القُراءِ مِن رسائلِ رسُولِ الله صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ ما يَعجزُون هُم عَن حَمْلِه ، وإلاّ فَلِمَ التَّصدِّي لِما يُمكِنُ للنَّاسِ فعلُه بأنفُسِهم ؟

وعليْه أن يَظُنّ بحديثِ رسُول الله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ الّذِي هُو أهدَى والّذي هُو أتقَى والَّذي هُو أهنأُ

روى ابن ماجه في (المقدمة) مِنْ سُننه بسنده عَنْ أَبِى عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِىِّ عَنْ عَلِىِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنه قَالَ : « إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثٍ فَظُنُّوا بِهِ الَّذِى هُوَ أَهْنَاهُ وَأَهْدَاهُ وَأَتْقَاهُ »[1].

فالفارقُ بيْن بيانِه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ وأيّ بيانٍ بشريٍّ هو الفرق بيْنه محمّدًا نبيًّا رسولا علمه اللهّ سُبْحانَه وَتَعالَى ما لَمْ يكن يعلم . وأيّ مخلوقٍ مِن العالَمين[2].

---

(١) ورواه الإمامُ أحمدُ في مسنده . وابن ماجه في مقدمة السّنن ، وصححه الألباني في صَحيح وضعيف سنن ابن ماجه حديث رقم (٢٠).

(٢) يقُول الله تعالى لرسُوله ﷺ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

(النساء:١١٣)==

وإذا ما كان أهلُ الدُّنيا يَتيهُ أحدُهم هُو وأهلُه علَى النّاسِ أن جُعلَ سَفِيراً لِرئيسٍ أو مَلك من أهلِ الأرضِ ، فكيفَ بالَّذي هو سَفيرُ رسولِ اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ؟

سفيرُ رسُول الله ﷺ إلى النَّاس لا يَتيهُ ، بل يُفعَمُ قلبُه بالرّهبِ والخشيةِ مِن التَّقصيرِ فِي القيامِ بحقِّ ما يُناطُ بِه . وإنّه لحملٌ ثقيلٌ جليلٌ .

وهُو رَهبٌ حاملٌ على الاجتهادِ والمُجاهدةِ الفتيَّةِ فِي حُسنِ القِيام بالرّسالةِ إيمَانًا واحتسابًا . وعلى التَّواضعِ لله سُبْحانَه وبِحمدِه .

وهو رَهَبٌ هازمٌ حضورَ النّفسِ في العملِ وَوَائدُ الشُّعورَ بالذَّات ، فلا يبقَى إلا الشعوربعظيمِ فضلِ الله سُبْحانَه وبِحمدِه أن هدَى ، وأعان وسدّد ، فهو منْه وإليْه .

==في قوله تعالى : (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ) إعرابٌ عن أنّ ما علمه الله سُبْحانَه وبِحمدِه لم يكن من شأنِه ﷺ أن يتعلمه بنفسِه مهما عظُم اجتهاده ، ومهما اجتمع إليه أهل العلم أجمعون يعلمونه ، فهو عِلمٌ إلهي ربّانيّ لا سبيلَ لأحدٍ من العالمين أن يعلمَه أحدًا أيّ أحد . ولذا قال : (لم تكن) ولم يقل : « وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَعْلَمُ » فكلمة« تكن » هذه تُعْربُ عمَّا ذكرتُه لك .

وإذا ما كان الله سُبْحانَه وبِحمدِه هوالّذي عَلَّمَ نبيه ﷺ مَا لَمْ يكُنْ مِن شأنِه أن يتعلَّمه مِن غيرِ ربّه تعالى ، فإنه سُبْحانَه وبِحمدِه قد تفضَّل على أمته ﷺ بذلك ، فقال : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٣٩) وذلك عَن طريق رسُولِه صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٥١)

وهذا من خصائصِ هذه الأمّة ، لا سبيل لأمةٍ أخرَى مَهما عَظم علمُها وتنوَّع وتفرّد أن يكونَ لها شيْءٌ من ذلك ، فحقَّ عليها أن تجتهدَ في شُكر هذه النّعمة بلسان الحال والمقالِ معًا . .

كذلك يَتبينُ لك عِظمُ مَسؤوليّة الشّارحِ بيانَ النُّبوة ، ويتبينُ لـك في الوقـتِ نفسِه عِظمُ قدرِ هذه النّعمةِ على مَنْ مَنَّ اللهُ سُبْحانَه وبِحمدِه عليه بهـا ، فجعلَـه مِن أهلِها . والله جَلَّ جَلالُهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ جليلَ نعمتِه ، ونبيلَ عطيَّتِه .

ومِن يجتهدُ فِي حسنِ قراءةَ كتابِ « شَرحُ أحاديثَ من صَحيحِ مسلمٍ : دراسة في سَمتِ الكلامِ الأوّل » لشيخنا أبِي أحمد ـ أعزّه اللهُ تعالى بطاعتِه ـ يُـوقنُ أنّ الله تعالى قَد مَنَّ عليْه بنعمةِ السّفارة الجليلةِ ، وبنعمةِ حُسنِ القيامِ بها ـ أَحسِبه كذلك ولا أزكّي على اللهِ تعالى أحدًا ، وإن كان شيخيَ الـذي غرسـتْنِي يمِينُـهُ المباركة في رياضِ طلب العِلم بكتابِ اللهِ تعالى وسـنةِ رسُـوله صـلّى الله عَلَيْـهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ وإذا ما كان مِن برّ التّلميـذِ بشيـخِـه أن يَعـرِضَ عليْه ما تلقَّاه منه لعلّه يقوّم عَوجه ، ويُسدِّد خلله ، ويأخذ بيدِه إلى الّـتي هِـي أقـومُ فإنّي ـ على استحياءٍ ـ لأرقُم شيْئًا ممَّا قامَ في صدرِي مِن قراءة كتابِـه : « شَـرح أحاديثَ من صَحيحِ مسلم : دراسةٌ في سَمتِ الكلامِ الأوّل » تبصَّرتُ فيـه مـنهجَ الشّيخِ فِي شرحِه أحاديثَ مِن صَحيحِ الإمام مُسلم رَضِيَ اللهُ عَنه .

المَأمُّ الأنفس للبلاغة فَنًّا وعلمًا

كلَّ من يعرفُ شيخنا أوْ سَمعِ باسمِه يعرفُ أَنَّـه شيخُ البلاغيين العَـرب في زمانِه ، وجمهرةُ مَن يسمعُ ذلك يفهمُ في ضوءِ ما عُهدَ عندَ كـثيرٍ أنّ « البلاغـة فنًّا » غايتُها الكلمةُ الجمالُ ، وأنّـها أداةٌ لصناعةِ الكلمةِ السّـحر ، وأنّ « البلاغـة علمًا » أداةٌ لِتلقّي هـذه الكلمـةِ تلقّيًا يثقُبُ صَدفـها ، أو يفتحُ أبوابَ خزائنِهَـا ، أَوْ يَكشِفُ أستارَها ، وكلّ ذلكَ حسَنٌ ، لكنّ الّذِي هو غـيرُ حَسـنٍ أن يَحسِـبَ أحدٌ أنَّ « البلاغة » فنٌّ يَصنعُ الكلمةَ الجمالَ أو علْمٌ يدرُسُها ، ثُمَّ تَنتهِي رسالتُها ورِسَالةُ أهلِها عندَ ذلكَ .

لو أنّ الأمرَ كان كذلكَ ، لما شُغلَ بِها أماجِدُ من أهلِ العلمِ فِي صُدورهمْ قلوبٌ تفقَهُ لِمَ خُلِقَتْ ، وتفقَهُ السَّبيل إلى تحقِيقِ رسَالةَ وُجودِها ، وتفقَهُ مَسؤُوليَّتها نَحو نَفسِها فِي مسِيرِها في هَذِهِ الحياةِ الدُّنيا ، وفي مَصيرها في الحياة الأخرَى ، وتفقَهُ مسؤُوليّتها نَحْوَ دينِها ونَحْوَ قومِها ، ونَحْوَ البشريّةَ جمعاء .

البلاغةُ فنًّا وعلمًا عِند أولى الألباب أداةً لغايةٍ أجلّ وأجمل . الغايةُ هِي صِناعةُ الإنسانِ كائنًا جماليّا (آدميًّا) فإذا كان ثَمَّ مَن يُعرّفُ «الإنسان» بأنَّهُ «حيوانٌ ناطقٌ» (مفكر) وهو تعريفٌ لا مَحالةَ كاشفٌ عن جوهرِهِ ، فَإنَّ له عندي تعريفًا آخرَ هُو «الإنسانُ حيوانٌ جماليٌّ»

التعريفُ الأوّل ينظرُ إلى الإنسانِ من جهة الفعلِ (التَّفكير)

والتعريفُ الآخر ينظرُ إليْه من جهةِ الغايةِ من الفعلِ (الجمال) هُو يفكّرُ ليتحقّقَ هُو بالجمالَ وليُحقّقَه في الكونِ والحياةِ ، وأبو البَشر سيّدنا «آدم» عَليْهِ الصّلاةُ والسّلامُ خُلقَ ليكونَ كائنًا جماليًّا ، ومِنْ ثَمَّ أُقيم في باكر أَمرِه في الجنةِ[1].

---

(١) كان من حكمة الله تعالى أن خلق «آدم»عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ من«الأرض»ولم يخلقه من السماءِ أو الجنةِ بل لم يخلقه بكلمة «كن» وخلق «حواء» رَضِيَ اللهُ عَنها من «آدم» ولم يخلقها من السماء أو الجنّة أو الأرض أو بكلمة «كن» في هذا إعلانٌ برسالةِ كلّ من خلال علاقتِه بما خُلق منه :
أبونا آدم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلامُ خلق من الأرضِ لأنه خلق ليعمُرها بطاعة الله تعالى على وفقِ مرادِه الشرعي ، فكانت علاقته بالأرضِ علاقة الفرع بالأصل ، علاقة الشَّيءِ بأمِّه
وهذا يستوجبُ أن يكونَ بها بارًّا ، وبرُّه بأمِّه «الأرض» يتَمثل في فعله فيها تعميرًا وإحيَاءً وفق مرادِ الله شرعًا إيمانًا واحتسابًا وهنا تكون علاقة الآدم (الرّجل) بالأرض عبادة . ==

مكثَ في تلك الجنّة لا يتلقّى إلا جمالاً حِسِّيًّا ومعنويًّا ، ولم يكن يَعرفُ القبحَ الحِسيّ أو المعنويّ قطّ ، فلمّا وقعتْ منه المعصِيةُ ، وهي رأسُ القُبحِ المعنويّ المُثمرِ قبحًا حسيًّا أهبطَ إلى الأرضِ ، لا ليفسِدها ، بَلْ ليستَبقي ما فيها من جمالٍ ، وليستثمرَه من بعدِ أن علِم عُقبَى «القبحِ» وأسبابَه ، ومن ثَم كان النّهي الإلهي : ﴿ **وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (الأعراف:٥٦) [١]

== وعلاقة«حواء» بـآدم «هي علاقة الفرع بأصله ، وبرُّها بأصلِها أن تعمُره باستنبات ، واسْتزراع ما هو مكنون فيه من بذور الرّجولة ومكارم الأخلاق .
ذلك عملها وتلك رسالتها ، وليست رسالتها مزاحمة (آدم : الرجل) في تعميرِ الأرضِ .
إنما أرضها (آدم : الرجل) فعليها استصلاحه واستزراعه وإحياء مواتِه .
وعلاقة «آدم» بـ« حواء» علاقة الأصل بفرعه رعاية وحماية .
كذلك تتبيْن العلاقة بيْن «الرجل : آدم» و«الأرض» وعلاقتِه أيضًا «بالمرأة : حواء»
وتتبيّن علاقة «المرأة : حواء » بـ« الرّجل : آدم» من خلالِ التبصر في وجه الحكمة فيما ما خُلق كلٌّ منه .
وفي الإعراب عنه بأنَّه «رجل» ، وأنّه«آدم» والإعراب عنها بأنّها «امرأة» وأنَّها «حواء» معنى جليل لك أن تتبصّره ، فأنا وأنت في عوزٍ بالغٍ إلى استحضاره في علاقتنا الأسرية والمجتمعية . وإذا غاب هذا المعنى عن وعينا ومن سلوكنا كان الذي تراه عينك وتسمعه أذنك صَباح مساء . .

(١) هل لك إلى أن تتدبر فاصِلة هذه الآية لتبصر شيئًا ممّا تفيضُ بِه من عواملِ التثقيف النفسيّ الحاملك إلى التسارع إلى أن تحوم حول مقامِ «الإحسان » لتدخله ؟ لِتتدبّر بناء هذه الفاصلة : (إنّ رَحمتَ اللهِ قَريبٌ مِن المُحسنِين)
هل لك أن ترى ما في العدول في رسم تاء التأنيث في (رحمة) تاء مبسُوطة ، وما في هذا البسط من إفادةٍ ببسط الرحمت للمحسنين بسطًا غير ما عهدت الخلائق ؟ وتاء الرحمة لا تبسط إلا إذا أضيفت الرحمة إلى اسم الجلالة ، وهو بسط يلحظ قول الله تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ** ﴾ (الأعراف:١٥٦) ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا** ﴾ (غافر:٧) ﴿ **رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ** ﴾ (الأنعام:١٤٧)
وهل لك أن تبصرَ في العدول عن مطابقة الصّفةِ الموصوفَ في (قريب) واصطفاء التذكير ؟
لعلك إن تلبثت علمت قدر الإحسان في إصلاح الذات والكون والحياة .

وهو لا ريب ليس بنهي خاصٍ بأمّة سيدنا محمّد صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ ، بل هو مُؤذّنٌ به في كلِّ أمّةٍ سبقتها ، وجاء النَّبأ بأنّ الله تعالى لا يُحب المفسدين[1]

أبونا « آدم » عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ رسالتُه فِي الحياةِ تَحقِيقُ الجمال المتمَثّلِ فِي عِمارةِ الأرضِ والحياةِ بطاعةِ الله تعالَى . الإنسان إذن كائنٌ جماليّ بكلّ ما تحتضِنه كلمة « جمال » من معانٍ .

وعلمُ البلاغةِ العربيّ علمٌ مهمومٌ بِصِناعةِ الإنسان كائنًا جماليًّا ، « إنّ الله جميلٌ يُحبُّ الجمال » (مسلم : الإيمان) [2]

ومن شاء أن يدرك شيئًا من هذا الجمال الذي يحبه الله تعالى ، فعليْه أن يستجمعَ الآيات القُرآنيّة ، والأحاديث النّبويّةَ المنْبِئَةَ بأنَّ الله سُبْحانَه وَتَعالَى

---

(١) أولي البصائر حين يسمعون قول الله تعالى (إنَّ الله يحب ...) يبتهجون فيسْعون إلى أن يبصروا ما يُحب سُبْحانَه وبِحمدِه ليكونوا مِمَّن أحبه جَلَّ جَلالُهُ .... « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ... » (البخاري : الرقاق)
وهم حين يسمعونَ قَول الله جَلَّ جَلالُهُ : (إن الله لا يحب ...) ونحوها تكاد تنخلع قلوبهم من صدورهم رهبًا ، فنفي محبة الله تعالى عن أحدٍ هي الشقاء كلّه في الدنيا والآخرة . ومن يقرأ شيئًا من ذلك ثم لا يتبلث يفتش في نفسِه في جميع أحوالِه أفيه شيءٌ من ذلك الذي لا يحبه الله سُبْحانَه وَتَعالَى من يَقرأ ولا يتلبّث ما هو بقارئ على النّحو الذي يحبه الله تعالى ورسُوله صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ .

(٢) إذا تبصرت سياقَ هذا النّبأ النّبويّ الجليل ألفيت أنه قد قرنه ببيان معدن القبح : « الكبر » « الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » ورأيت أنّ هذا القبحَ هو عاملٌ مستوحش في إفساد الحياة ، وإفسادِ الرِّسالة التي خلق لها آدم عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ وذريته ، ممّا يهديك إلى أنّ هذا الجمال الذي يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنّما هو الفعل المحقق عمارة الكونِ والحياة بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

يحبُّ كذا . . . ويتبصّر ما يُحبه الله تَعَالَى سيجدُ أنَّها أمورٌ هي الصَّانعة للجمال الحسيّ والمعنويّ .

علمُ البلاغةِ العربيّ هو علمُ تحقيقِ الجمالِ في الوجودِ الآدميِّ فِي هذا الكونِ ، وفقَ المفهوم الإسلاميّ (قرآنًا وسُنّة) للجمالِ الَّذي أنبأ رسُول الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ أنّ الله تعالى يُحبّه .

مفهوم الجمال في الإسلام

وهذا يُعربُ لك عن حقيقةٍ فريدةٍ في مفهوم الجمالِ في الإسلامِ ، إنّه الجمالُ الَّذي يثمرُه جلالُ الأشياءِ ، هُو وليدُ الجلالِ ، ولذا كان الجمالُ في مفهوم الإسلام لا يحملُ على شيْءٍ من القبحِ الحسيّ أو المعنوي : المعرفيّ أو الاعتِقاديّ ، اللفظيّ أو السّلوكيّ .

من جلال الأشياءِ ينبثِقُ جمالُها .

ولذا جاءت الحكمةُ العربيةُ : إيّاكم وخضراءَ الدّمن : المرأةُ الحسناءُ فِي المنبتِ السّوء . ذلك أنّ حسنَها لم يُستَنبَتْ مِن جلالِها . فكان جديرًا بأن يُحذَّرَ منه . هذه هِي الحقيقةُ الإسلاميَّةُ للجمالِ .

العقلُ البلاغي العربيّ هو العقلُ الباحثُ عن ذلك الجمالِ المتولّدِ مِن الجلالِ في الكلمةِ سَواء كانتْ الكلمةَ الوحيَ (قُرآنًا وسنّة) أو الكلمة الآدمَ (الكائن الجماليّ) شعرًا ونثرًا .

يبحثُ العقلُ البلاغِيُّ العربيُّ عَن هذا الجمالِ لِيُغرِي بإقامتِه فِي حركة تَعمِيرِ الكونِ والحياةِ الذي هُو رسَالةَ أبينا آدم عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ وذريتِه جمعاء .

ذَلِك جوهر «البلاغة» وفلسفتها (فنًّا وعلمًا) كما رأيتُها في ما رقَّنَتْ يمينُ شيخِنا أبي موسى مِن كتبٍ وبحوثٍ ، وفيما سبّح بِه لسانُه في محاضراتِه

ومجالسِ علمِه ، والّتي كان لِي شرفُ تلقيها قلبًا وقالبًا منذ أكثر من خمسة وأربعين عامًا تجري فيّ (١٣٨٩-١٤٣٨هـ) فتعلمتُ مِن لسانِ حالِه ومقالِه .

تعلمتُ حقِيقةَ الفعلِ البلاغيّ (فنًّا وعلمًا) ورسالته ، وأيقنتُ أنّ جوهرَ البلاغةِ وفلسفتها عنده ليس بالقائمِ في شقشقةِ ألسنةٍ جوفاء . فلسفة البلاغة وجوهرها في صِناعةِ الكلمةِ «النُّور» والكلمة «السَّيف» الكلمةُ البليغة عنده هِي الّتي تضيئ طريقَ الحقّ والخيرِ للإنسانِ ، وهي التي تصُونُ الحقَّ والخيرَ وتحميه بكلّ ما تحملُه كلمة «الحق» و«الخير» ذلك أَمرُ الشَّيخِ فِي علاقتِه ببلاغةِ الفؤاد واللسان والحركةِ فنًّا وعلمًا . أي كتابٍ أنتَ تُخادِنُه من كتبِ الشّيخِ منذ أن كتب لنا مذكرته اللطيفة «تتمَّةٌ في أمورٍ مهمة» عام ١٣٨٩هـ ، ونحنُ في السَّنةِ الثانية فِي كلية اللغة العربيّة بالقاهرة ، ، إلى كتابه (شرح أحاديثَ من صَحيحِ مسلم)

* * *

أنت تبصرُهذا الذي قلته عن جوهر البلاغة وفلسفتها عنده ، إن كنت مِمَّن يُبصرِ الكُلياتِ ومنازعَها وغاياتِها ، ولا يَتقوقعُ في الجُزئيَّات ، فشأنُ المُحصِّلين كمَا علمَنا أئِمَّة «علمِ البحثِ والمناظرة» أنَّهم لا ينشغلون بالبحثِ في الجُزئيَّات عن الكُليات والأصولِ .

ولمّا كان عسيرًا عليّ أن أحدّثك عن هذا في كلّ ما رقنت يمينُ شيخنا ، كنت أرغبَ في أن أريك شيئًا من هذا في كتابه (شَرحُ أحاديث من صَحيح مسلم : دراسة فِي سَمتِ الكلامِ الأوّل) ولما كان هذا الكتابُ مِن آخر ما قدَّم لنا شيخُنا كنتُ حفيًّا بأن أبصرَ منهجَه في قراءة بيانِ النُّبوّة ، وهدايتنا إلى ما تحملُه هذه البلاغةُ النَّبويّةُ ممَّا أسميه «عوامِلَ تهديمِ أركانِ مثالبِ الوُجود الإنساني ، وعوامل تشييد أركان مناقب الوجود الآدميّ»

الفرق بين الوجود الإنسانى والوجود الآدمى للعبد

هنالِك فرقٌ وسيعٌ عميقٌ بيْن الوُجودَين .

الوجود الإنسانيّ يغرقُ فيه المرءُ في مَعرّة الأُنسِ بالنّعمةِ ونسيانِ المنعم بها ، فيتلطَّخ بالقُبحِ ، ولذا كانت كلمة « الإنسان » في البيان القُرآني لاتكادُ تأتِي في غيرِ مساقِ المَذمَّةِ ، وكأنّه لوحظ في الإعراب بها اشتقاقها من الإنس والنّسيان ، فصُنِعت الكلمةُ من الأصلين الذي أوَّله سببٌ وثانيه مسببٌ عنه : لمَّا أنس بالتَّمتع بحظ نفسِه مِن النّعمةِ نَسِيَ حقَّ مُنعِمها عليْه شُكرانًا فكان « إنسانًا »

الوجود الآدميّ يتسنَّم مدارج القُربِ الأقدسِ مِن جلالِ الألوهيّة ومن جمالِ الرُّبوبيَّة ، ولذا هُو الحالُّ المُرتحِل بيْن مقامِ الخَشيةِ والرّجاءِ والسّنة البيانية للقرآن الكريم أنّه يذكرُ في سياق التّكريم والبعث على العزة مصطلح « بني آدم » تذكيرًا بالأصلِ الذي نُسلوا منه ، وهُو أصلٌ خلقه الله تعالى بيده وعلّمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة ، وأسكنه الجنة . . . فهذه مِنَنٌ على ذريته استحضارُها في حركتهم في هذه الحياة يُعينهم على أنْ تبقى المّنة غير شاغلة لهم عن المُمتن بها سُبْحانَه وبِحمدِه ، بل تبقَى حامِلَة لهم على المكث في طاعته جَلَّ جَلالُهُ

هذا هوالفرقُ البيّن بيْن الوجودين : الوجودِ الإنسانيِّ والوجودِ الآدميِّ لكلٍّ منّا ، فانظر أيّ الوجودين أليقُ بك ، وأحبُّ إليْك ؟ .

* * *

بواعث القراءة :

ليس العلمُ تعلمًا وتعليمًا ونشرًا غايةً في نفسِه تنتهِي مسؤوليةُ المرءِ بالفراغ من ذلك ، بل العلم بأبعاده : التَّعلم (فهمًا) والتعليم والنّشرُ (إفهامًا) وسيلة إلى غايةٍ تتمثلُ في حُسنِ القيام بحقوق تتعلقُ برقبة المرْءِ ، هُو مسؤولٌ عنها يومَ الفصلِ الأعظم من تلك الحقوق حقُّ الأمّة المسلمةِ ، وحقُّ الإنسانيّة جمعاء .

فالعلماءُ ورثة الأنبياء ، ورسالة الأنبياء جميعا إخراجُ النَّاسِ من الظُّلماتِ إلى النّور[1].

وإذا ما كانَ علماء هذه الأمة هم ورثَةُ سيّد الأنبياء صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ الذي أرسله الله تعالى للنَّاسِ كافة . وأرسله رَحمةً للعالمين ، فمَسؤوليّة ورثتِه العلماءِ تتّسع باتساع رسالته ﷺ وتتخذُ غايته غايتها : إخراج النّاسِ كافة من الظلمات إلى النّور .

ولذا كانت كلمة ورثة الأنبياء : العلماء «نورًا» تُضيئُ السبيلَ للنَّاسِ ، و«سيفًا» يُغمدُ في أعناقِ من يتعمّدُ منعَ النّاس من إبصارِ هذا النّور ، فهي الكلمةُ «النُّورُ» أولاً ، وهي الكلمةُ «السَّيفُ» ثانيًا[2].

---

(١) الظلمات التي يخرج الأنبياء ثُم العلماء العباد منها فسطاطها ظلمة «الكفر» ويتبع ذلك ظلمات عديدة متنوعة منها ما يرجعُ إلى علاقة العبدِ بالله سُبْحانَه وتَعالَى ، ومنها ما يرجع إلى علاقته بنفسِه ومنها مايرجعُ إلى علاقته بالكونِ والحياة والإنسان كلّ الإنسان . .

(٢) أشيرُ بقولي : «من يتعمّدُ منعَ النّاس من إبصارِ هذا النّور». إلى ما أذهب إليه من أن الإسلام شرع مقاتلة من صدّ الإسلام عن أن يبلغ العبادَ ، ولم يشرع مقاتلة من أبى أن يدخله ، وقبل مسالمة أهله . فمن بلغه الإسلام وبقي على دينه لا يقتل ، بلْ ولا يقاتل . إنما يقاتل منْ اجتهد في منع المسلمين من تبليغ الإسلام إلى الناسِ ، أو من جهد في إيذاء المسلمين ، وذلك للحفاظِ على حق الآخرين في أن يسمعوا الهدَى ، وأن يقفوا على الإسلام ، ثُمَّ يكون لهم الخيار في أن يسلكوا ماشاؤوا ، ، وأن يتخذوا بأنفسِهم لأنفسهم ما يرونه دون أن تكون هنالك وصايةٍ من أحدٍ عليهم . ثُمَّ حسابهم على مختارهم على الله تعالى . ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:٢٥٦) ذلك ما أفقهه من مشروعية الجهاد في الإسلام .

هو جهاد لتمكين الآخرين من حقهم في أن يسمعوا الإسلام ، وأن يتخذوا منه موقفًا عن قناعة وحرية مسؤولة .

فالجهاد في الإسلام دفاعٌ عن حقِّ الآخرين في المعرفة والاختيار عن وعيٍ وتحرّرٍ . وليس إرغامًا للناس على أن يدخلوا فيه . هوأجلُّ من أن يُكره أحدًا على اعتناقه . .

وهذا ما تجده في بيان الشّيخ وإفهامِه . وهذا هو الذي تراه حاضراً زاهراً في قراءة شيخِنا أحاديث مِنْ صَحيح مسلم .

كان حفيًّا بواقع الأمّة ، وما يُحيط بها ، وما تساقُ إليْه من أعدائها ، وحفيًّا بكشف عوامِلِ الإفساد والتّهديم لخصائص الأمَّة في علاقتها بخالقِها وبالكون والحياة والإنسانِ كلِّ الإنسان ، ولذا كان يُكثِرُ من الالتفاتِ إلى هذا الواقع . وكانَ يدخلُه من بابِ فقه بيان النّبوة وما أقيمَ عليه من منهاج الإفهام الّذي كان فيه الشَّيخُ خبيراً بصيراً بِما حمله مِن أدواتِ العلم بلسانِ العربيّة قائمًا في بيان الوحي قُرآنا وسنةً وبيان الإبداعِ البشريّ شِعراً ونثراً ، وكانت له فيه مُمارساتٌ في القراءة المتغوِّرة ، والمثمرة والكاتبة المسكوتَ عنه ، والكاشفة ما ستر في أردانِه ، وما طوي في ثناياه ، يشهدُ لهذا ما سار في طلابِ العلمِ وأهله من أسفارٍ وبحوثٍ ومجالس علمٍ لم يكن لكثير من أقرانه ما يعطسُ بغبارها .

واقعُ الأمَّة ، وما يفرضُه عليه من القيام بحق إصلاحِه ، وحياطتِه وإيقاظِه وتثويرِه وتنويره بنور الوحي ، والعقلِ المنبثقِ من ذلك الوحي ، هو الباعثُ الرّئيس على هذه القراءة .

لم يكن التَّغوّر في قضايا علم الفهم للسان العربيةِ ومسائله : (علم البلاغةِ العربيّ) ومراجعة مقالات العلماء وتقويمها ، وتقريبها في ضوء بيانِ النبوة كما يفعل غيرُ قليلٍ من أهلِ العلم ببلاغةِ العربية ، هو الباعثُ الأعظمُ للشّيخ في قراءة صحيح مسلم ، وإن كان هذا في نفسِه عملا يُفتقرُ إليه إلا أنّ الأمّة اليوم أشدّ احتياجًا إلى القيامِ بحقّ حياطتها ، وحراستها وتطهيرها ، وإصلاح ما أُفسِد فيها [1].

---

(١) لا يعني هذا البتّة أن فعل الشيخِ خلاءٌ من هذا النّظر في قضايا البلاغة وأساليبها ، كلا ، فإن له من ذلك في هذا الكتاب ما لو جمعته لكان لك منه حملٌ جليلٌ ثقيل ، لكنّ هذا ليس هوالمَأَمَّ الأنفس والمحجّ الأقدس .

وهذا هو الغايةُ العُظمَى مِن الإحسان في «علم البلاغةِ العربيّ» بما أنّه علم «فهمٍ» قبلَ أن يكون علم «إفهامٍ» متولّد من الفهم . وهُو علم فهم بيان الوحي قبلَ كلِّ شيْءٍ ، وفهم بيان الوَحي سبيلٌ إلى حُسن فهم الحَياة المَسير (الدُّنيا) والغاية مِن الوُجود الآدميّ فيها ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات:٥٦) وإلى حُسن فهمِ الحياةِ المَصِير (الآخرة) تلك هي الغايةُ العظمى من (علم البلاغة العربيّ) كما أفهم .

وكلُّ جَهْدٍ يبذلُ في هذا العلم لا يُعينُ على التَّقدّم الكريم نحو هـذه الغايـة هُو جهدٌ عقيمٌ لا يشتغل به إلا غابنٌ نفسَه . ذلك هوالباعِـث الحثيـثُ الـرّئيس للشَّيخ إلى هذه القراءةِ الماجدَةِ .

* * *

تحقيقه جوهر البلاغة على وجهٍ آخر :

ممَّا يحملُه طلابُ العلمِ أنّ البلاغة مطابقة مقتضى الحال ، وهذا قولٌ مُجملٌ يجمعُ ضربيْ البلاغة :

الضّرب الأوَّل : بلاغة لسان المقال فهمًا وإفهامًا .

والضَّرب الآخر : بلاغة لسان الحال فعلاً وتركًا .

البلاغةُ الأولى معدنُها موهبـةُ الإبـداع في الفهـمِ والإفهـام وَالبلاغـةُ الأخـرَى معدِنُها موهبةُ الحكمة سلوكًا .

﴿ **يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (البقرة:٢٦٩)

وبلاغةُ لسان الحال فعلاً وتركًا هي الأوجبُ مِن بلاغـةِ لسـانِ المَقـالِ فهمًـا وإفهامًا ، فما كلٌّ بمؤتَى تلك ، ولكنّها : بلاغةَ الحال واجبةٌ على كلِّ ذي عقلٍ ، فإنّ من فسادِها فسادَ حياةٍ ، وإنَّ مِن تحققُّها تحققَ حياةٍ .

obeikandl.com

وشيخُنا في كتابه : « شرحُ أحاديثَ مِنْ صَحيحِ مُسلم » كان له من البلاغتين : بلاغةِ لسان المقالِ فهمًا وإفهامًا ، وبلاغةِ لسانِ الحال فعلا وتركًا ما لا يُطِيق المقامُ تفصيلَه . والإشارة إلى بعضٍ من معالم بلاغة الحال أوجبُ هنا .

الشَّيخُ معهودٌ عنايتُه البالغةُ ببلاغةِ اللّسان ، وقلما يلتفتُ متلقّو أسفاره ومحاضراته إلى بلاغةِ لسان الحال فعلا وتركًا قلما يلتفتُ طلابُ العلم إلى إدراك المقتضي الحاملِ للشيخِ إلى أن يقولَ في كذا وأنْ يدعَ القولَ في كذا ، فهو فيما عهدتُ مِن طول قُربى من عقله ولسانِه حفيٌّ بأن يَختارَ ما يتكلَّم فيه وما يدعُ ، وكثيرًا ما يكونُ في هذا خارقًا أفقَ الانتظارِ والتوقُّع . وكأنّه يمتطِي صَهوة أسلوبِ الحكيم .

شيخُنا في هذا السّفرِ كانت عنايتُه بأمرِ الواقع الذي يُحيطُ به هى الباعثه على أمورٍ في هذا السّفر المُسفِر عن حقيقةِ واقعِ الأمّة ، وحقيقة المُثمرِ هذا الواقع ، وحقيقة ما يَجبُ على الأمّة لتخرجَ من هذا الواقع الذّليل الذي لا يرضى به ، بل ولا يسْكت عليه إلا مُسْتنعجٌ ، وهم اليوم جدُّ كثير .

* * *

منهجه في اختيار الأحاديث وبناءِ القول في الكتاب :

بلغ احتفالُ شيخِنا واحتفاؤه بواقعِ الأمّة ، وجعله وكْدَه الأعظم ، وهمَّه الأجلَّ مبلغًا جدّ جليّ وفتيّ فِي هذا الكتابِ على نحو لم يكنْ ظهارًا لِي أنا ـ فيما أزعمُ ـ كمثله في ما سبقه مِن أسفارٍ أسداها إلى العقلِ المُسلم ذلك أنّ الواقعَ المُحيطَ بنا الآخذَ بخناقِنا والَّذي سنأخذ بخِناقِه إن شاء الله تعالى هُو الذي حمَل شيخَنا على عظيمِ الاعتناءِ بكشفِ أستارِه وإصلاحِ فسادِه ، وتلك هِي بلاغةُ لسانِ الأحوالِ والأفعالِ وهِي أصدقُ بلاغةٍ وأجلُّها .

احتفى الشَّيخُ في هذا الكتابِ بواقعِ الأمّةِ وبالوفاءِ ببعضِ حقِّها عليْه ، مُستثمِرًا في هذا حُسنِ البَصرِ ببيانِ النّبوةِ وما له مِن مَهارةِ فهْمِ لسانِ العربيّة في

أسمَى صُوره ، وما له من قُدرةٍ فتيةٍ على الإبانةِ عمّا يتوافدُ على فؤادِه مِن ثمارِ الفَهمِ عَن الله تعالى والفهمِ عَن رسُولِه عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وصَحبه الصّلاة والسّلامُ .

من هذا تراه في الجُزْء الأوَّل من الكتابِ حفيًّا بأحاديثِ الإصلاحِ لحالِ هذه الأمّة ، وإعادتِه على ثبج مضمارِها الَّذي خلقت له : مُخرِجةً للناسِ من الظلمات إلى النّور .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران:١١٠)

ترَى احتفاءَه بالأحاديث الكاشفة عن المُوبقاتِ المُبيراتِ وقراءتها في واقع الأمّةِ المشهودِ المُحيطِ بنا .

ترَى احتفاءَه بالأحاديثِ الكاشِفةِ عمَّا يُطارد الأمّةَ عَن مِضمارِها ـ مِضمار نصرة الحقِّ ، وصِناعةِ الخَيْرِ ونشرِه ـ الّذي يَجبُ أن تكونَ في ثبجِه تقدُم الأممَ جمعاءَ .

تراه يبسُطُ لك القولَ في بيان النُّبوّة المُصوّر ما يُسوق الأمّة إلى مهلكِها [1]

وهذا ما يَتجلّى لك من الأحاديث الّتي شرحَها (ص : ١٧- ٢١٣)

ويُردفُه بالقولِ في بيان النّبوَّةِ المنقذِ هذِه الأمَّةِ مِن المضاءِ في طريقِ الهَلاكِ وما هو مُخرجُها مِن هذا الّذي يطاردُها عَن مقامِها الرِّياديّ في الأمَم ، ويُقيمُها على الجادَّةِ وفاءً برسالتِها الماجدةِ فِي هذِه الحياةِ . (ص : ٢١٣-٥٣٦)

---

(١) رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَاب (المَلاحم) من سُننِه بسَنده عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ». فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ « بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ ». فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ قَالَ « حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ ».

ورواه أحمد في مسنده ، وصححه الألباني صحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم (٤٢٩٧) وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة . حديث رقم : (٩٥٨)

أنت ترَى الجُزءَ الأول كلَّه شَرِيْجَين :

الأول : الدَّاءُ ، والآخرُ : الدَّواءُ .

وكأنّي بِه أعزّه الله تعالى بطاعتِه أرادَ أن يجعلَ عُنوان هذا الجزء الأول مِن الكتاب (الدَّاء والدَّواء) فكان نعمَّا الحكيمُ .

أمّا الجُزْءُ الثاني فإنّي أرَى أنّ العنوانَ الأحقَّ به هُو (الكَهْفُ) فَجُلّ الأحاديثِ الَّتي جاءَ بِها إنّما هِي فِي بابِ تحصينِ الأمَّة وحمايتِها وحفاظِها مِن عواملِ الفُرقةِ والتَّهالُكِ .

جعلَ شيخنا هذا الجزْءَ أربعةَ أبوابٍ :

الأوّلُ : في أحاديثِ تحصينِ مال الأمّةِ (ص ٥٤٣-٦١١)

والثَّانِي : في أحاديثِ تحصينِها بالرّسالةِ المحمّديّة (ص ٦١٢-٦٥٤)

والثَّالِث: في أحاديثِ تحصينِها بالتآخِي والتَّراحُمِ والعَدل (ص٦٥٥- ٧١٦)

والرّابع : فِي أحاديثِ تحصينِها بالزُّلفى إلى اللهِ تعالَى (ص ٧١٧-١٠٨٤).

وقد بسط الشّيخُ القولَ في أحاديثِ التَّوبةِ والاستغفار على نَحو لا يَخفَى على ناظرٍ في كتابِهِ ، وكذلك احتفَى بأحاديث الذّكر والدعاء ، وكلُّ ذلك من الحصن المَنبع لِمن أحسن دخولَه إيمانًا واحتسابًا . ففي التنزيه والاستغفار والذكر والدعاء تزكية وتقوية لمقام العبودية الذي هو أجل مقام يقوم فيه العبد بيْن يدي سيده ، ومن فَعَل فقد استحق ما تفضل به الله سُبْحانَه وبِحمدِه في قوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

(الحج:٣٨)

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل:١٢٨)

هذا وعدٌ إلهيّ متحقق على كماله إذا ما حقَّقَ المرءُ القيامَ المكين في مقامِ العُبوديّة لله ربّ العالمين .

فأحاديثُ هذا الجُزْءِ الثَّانِي هِي الَّتي تُمثلُ (الكَهف) الحَصين لِهذِه الأمّة من بعد أن شخّصَ لها الداء وبيّن الدواءَ في الجُزْءِ الأوّل . .

وبهذا يَتبينُ لك أنَّ نَسق الأحاديثِ فِي الكتابِ بجزْئيْه قدْ أقيمَ علَى رُؤيَة مَوضُوعيِّة مَخرجُها حالُ الأمّةِ الآخذُ بخناقِها ، والّتي يَسمعُ كلَّ عاقل استغاثتَها بِعلمَائها وطلابَ العلمِ فيها وبِحُكمائِها وشرفَاء أبنائِها لإنقاذِها مِن سُوء المسير والمصير

كان لزامًا أنْ أحرصَ على الالتفاتِ إلى مَنهجِ الشَّيخِ في قراءةِ بيان النّبوّةِ ، واستنباطِه هذِه العَوامل الهادِمةِ للقُبح فينا والمُشيّدة للجمالِ فينا . فكان التفاتِي إلى منهجيّة «القراءة» وعنايتِها بفاعليَّة الكلمةِ «النُّور» والكلمةِ «السّيفِ» لِنعرفَ المَنهجَ الَّذِي سلكَ الشَّيخُ والأدواتِ الّتِي اتّخذَها لِتحقيقِ الرِّسالةِ ، فَتَسَنَّمَ مَدارجَ الإحسانِ إلي طُلابِ العِلم ببيانِ العربيّةِ عامَّة وببيانِ الوحي قُرآنًا وسُنةً خاصَّة ، واقتعدَ مقعدَ المَجْد في قلوبِنا .

* * *

منهج القراءة والبحثِ عند الشيخِ أبي موسى ومَرجعيتُه : (١)

منهج البحث : لَيس خفيًّا أنَّ للبحثِ عَن الحقيقةِ وتحريرِها وتقريرِها بالدَّليلِ الصَّحيحِ الصّريحِ في الدّراساتِ اللّغويّةِ على تنوّع مجالاتها ، وللدّراساتِ الإسلاميّة (عقيدةً وشريعةً) وللدّراسات الإنسانيّة العربيةِ على تنوعِ

---

(١) غيرُ قليلٍ من طلابِ العلم فِي الدراسَاتِ العليا لا يفرقونَ بيْن مَنْهجِ البحثِ العلمي ، ومنهج التطبيق ، ومنهج القراءة :

البحث العلمي له منهج واحد هو المنهج الاستقرائي ، ومنهج التطبيق له المنهج الاستدلاليّ ، ومنهج القراءة يتنوع فمنه البلاغي ومنه النفسيّ ومنه التاريخيّ ومنه الاجتماعيّ ، وهوالجهة التي يقرأ منها النصّ .

وعلى طلاب العلم أيضًا أن يفرّقوا بيْن المنهج باعتباره طريقة في الكشف عن الحقيقة ، وإجراءات المنهج التى يتخذها الباحث للكشف عن الحقيقة .

مجالاتها أيَضًا منهجًا واحدًا ، هو المنهجُ الّذي ينطلقُ من استقراءِ الجُزئيَّات ثُمَّ تصنيفِها وتحليلِها واستنباطِ الحقيقةِ منها .

ذلك المنهجُ لا سَبيلَ لطالبِ العلمِ أن يغفل عنْه أو يتشاغلَ بِغيرِه عنْهُ في مرحلة البحث : (كشفِ الْحقيقَة واستخراجها ، أو إزالة الشبهة ، وحلّ الاشْتكال).

ولا يليقُ البتة أن يتهاون في الوفاء بِحقّ أيِّ ركنٍ من أركانِ هذا المنهج الأربعة :

استقراء الجزئيات ـ التصنيف ـ التحليل ـ استنباط الكلية أو الحقيقة .

التهاون في شيءٍ منها يُؤَدِّي إلى انتفاءِ الثقةِ في ما ينتهي إليهِ الباحثُ من نتائج .

يقول السيد الشريف : « علم المعاني : هو معرفة قواعد مستخرجة من تتبع جزئيات من تراكيب البلغاء وتعرّف ما لها من الخواص المستفادة منها بحسب مقتضيات الأحوال ، مثلا : إذا تتبعت جزئيات كثيرةً من تراكيب الكلام المؤّكد ، وتعرّفت : أنّها تفيد دفع الشكّ أو ردّ الإنكار أو غيرهما ، وتبين لك : أن إفادتها لتلك المعاني لاشتمالها على التأكيد المناسب لها بوجه خطابي حصلَ عندك قاعدةٌ كليّة هي : أنَّ كلَّ كلام مؤكَّد من حيث هو مؤكّد صالح لإفادة تلك المعاني ، فهذه القاعدة مسألةٌ من علم المعاني دليلُها استقراء تلك الجزئيات .

وقس على ذلك تتبع جزئيات سائر أنواع التَّراكيب واستخراج القواعد منها ، فتكون الجزئيات التيُ استقرئت دلائل استقرائية للقواعد ، فيتوقف معرفتها على معرفة خواص تلك الجزئيات »[1].

---

(١) المصباح شرح المفتاح للسيد الشريف الجرجانيّ . تحقيق بوكسل جلبك (رسالة دكتوراه . إشراف : الأستاذ الدكتور أحمد طوران أرسلان) ط : استنبول ٢٠٠٦م ، ص٣٣، ٣٤ .

obeikandl.com

هذا المنهجُ الّذي يُمكنُ أن تُسمّية «المنهجَ الاستقرائيّ» على التوسّع فِي التَّسمية نظرًا إلى الخطوةَ الأُولَى والرَّئيسة من خطواته : (الاستقراء) . هُو المنهجُ المُقابلُ للمنهج «الاستِدلالِيّ» الّذي ينطلقُ مِن الكلّ إلى الجُزْء ، فلا يُؤدّي إلى اكتشافِ كلّيّةٍ ضابطةٍ للجزئياتِ .

وهذا المنهجُ «الاستدلاليّ» هو المُتّخذُ مِن بعد استنباطِ الحقيقةِ الكُلّيّة بالمنهجِ الاستقرائيّ ، وذلك لتطبيقِ هذه الحَقيقةِ الكُلّيّة على الجزئيّات وفي هذا بيان أنَّ المنهج «الاستقرائيّ» هو المقدَّم في البحثِ العلميّ لكشفِ الحقائقِ ، وأنّ المنهجَ «الاستدلاليّ» هُو المستعملُ آخرًا لاستثمارِ هذِه الحقيقةِ الكُلّيّة في التَّطبيقِ .

وأنت إذا ما نظرت في أيِّ كتاب بلاغي وقرأت مبحثًا من مباحثه من نحو أغراض الحذف أو الذكر أو التعريفِ أوأغراض التشبيه ونحو ذلك تجدُ البلاغيين يستنبطون هذه الأغراض وهي قواعد كلية من استقراء البيان البليغ ، وهم يحترسون فيقولون : ومنها كذا وكذا . . . مخافة أن يكون استقراؤهم البيان البليغ ناقصًا ، وهذا من إحكامهم النظر والعبارة عنه .

والشَّيخُ يتخذ المَنهجين معًا المنهج «الاستقرائيّ» في البحثِ ، والمنهج «الاستدلاليّ» فِي التّطبيقِ .

تراه يستعملُ المنهجَ «الاستقرائيّ» في كتابِه هذا يتتبّعُ الجزئيات للظَّاهرةِ التّعبيريّة فِي بيانِ النّبوّة ، فيَستنبطُ لَكِ مِن هذا الاستقراءِ والتَّحليلِ قاعدةً كليّةً . على نحو ماتراه في قوله «ولم أَجد في الدّين شيئًا يرضاه ربُّنا إلا وهو خيرٌ لي ولك ، ولم أجد في الدّين شيئًا يكرهه ربنا إلا وهو شرٌّ لي ولك»[1]

هذا دالك على أنه ما قال ذلك إلا من بعدِ مراجعة واستقراء مرهون بطاقةِ المستقرئ ، مستنتجًا من هذا الاستقراء وتحليله هذه القاعدة الكلية .

---

(١) شَرْحُ أحاديثَ منْ صَحِيحِ مسلم ١٢٧/١

وتراه يستخدِمُ المنهجَ «الاستدلاليّ» وهُو يشرحُ لك تركيبًا أو صُورة، فيستدعِي قاعدةً استنبطُها العلماءُ بالمنهجِ «الاستقرائي» فيعمدُ إليها في تطبيقاتِه شارحًا بيانَ النّبوّة.

ترَى هذا فِي تلقِّيه قول النبيّ صلّى الله عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وسَلّمَ: (وهُو مُؤمنٌ) في الحديثِ الأول: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِين يَزْنِي وهُو مُؤمِنٌ...»

يقُولُ الشَّيخُ: «وجملةُ: (وهُو مُؤمنٌ) بُنِيتْ بناءً حيًّا، يتلاءَمُ مَع مكانتِها فِي الحديثِ الشَّريفِ، وقد بُنِيَ الحديثُ عليْها، لأنّها مَقصِدَ المَعنَى في الجُملِ المذكورة والمعبّرة عن الخطايا المذكورة....»

ويمضِي الشّيخُ في تحليلِ بِنيةِ هذِه الجُملةِ، وبيانِ قيمةَ بنائها جملةً اسميّة، والإتيان بالضَّمير وبـ «واو الحال» ودلالة هذه «الواو» على أصلِ معناها: «العطف»، وبيانِ قيمةِ حُضورِها مَع الجملةِ الحاليّةِ.

ويمضِي قائلا: «والّذي اكتشَفَ هذا المعنَى الخَفِيّ الشَّيخُ عبدُ القاهر، وعبّرَ عنه عبارةً كريمةً، قال رحمَه الله: فمُحالٌ أن يكونَ هُنا جملةٌ لا تَصْلحُ إلاَّ مع «الواوِ»، وأخرَى لا تَصْلحُ فيها «الواوُ»، وثالثةٌ تَصْلُحُ أن تجِيءَ فيها «بالواو» وأنْ تَدَعَها فلا تجيءُ بها، ثم لا يكونُ لذلك سبَبٌ وعلَّة، وفي الوقوفِ على العلَّة في ذلك إشكالٌ وغُموضٌ، ذلك لأنَّ الطريقَ إليه غيرُ مسْلوكٍ والجهةَ الّتِي مِنها تُعرف غيرُ معروفةٍ، وأن أكتبُ لك أصْلاً فِي «الخبرِ» إذا عرَفْتَه انفتح لك وجه العلة في ذلك....»[1]

---

(١) شرح أحاديث من صَحيح مسلم (م. س) ١/٣٣، ٣٤ ودلائل الإعجاز. تأليف عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلّق عليْه محمود محمد شاكر. مطبعة المدني: القاهرة. نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ص: ٢١٢ وما بعدها فقرة: ٢٤٠

ثم يعرضُ الشيخ مقال الإمامِ عبد القاهر ، ويعقبُ قائلاً : « وَهذَا مِن الكلامِ الّذي لا أشبعُ مِنْ قَراءتِه ، لأنّه نموذجٌ يُواجِهُ فِيه واحدٌ مِن علمائنا مسألةً غامضةً لمْ يَتكلّمْ فِيها سلفُه مِن العلماءِ ، ولَم يرَ طريقًا مسلُوكًا ، ثُمّ يُحاولُ هو أن يَجدَ لَها طريقًا مسلوكًا ؛ لأنّه متأكّدٌ أنّ هُنا علّةً مسكُوتًا عنها ؛ لأنّ « الواو » لا تَجيءُ مرّةً ، وتذهبُ مرّةً إلاَّ لأمرٍ وراءَ مَجيئِها ـ وأَمرٍ وراءَ غِيابها ؛ فإنَّ يقينَ العلماءِ أنَّ العربيةَ مُنزّهةٌ عَنْ العَبَثِ ، ولا يُمكنُ أن يستَوِي كلامٌ جاءتْ فِيه « الواو » مَعَ كلامٍ لَمْ تأتِ فِيهِ « الواو » . وكلُّ هذا ممَّا أحبُّ أن أُراجعه . . . ».

وفي قولِ الشّيخ « وَهذَا مِن الكلامِ الّذي لا أشبعُ مِنْ قَراءتِه . . . إلخ » لفتٌ لنا إلى أمرين رئيسيْنِ :

الأمرُ الأول : أنَّه يسْتطعِم كلامَ الأعيانِ ، وهي كلمةٌ عاليةُ ، استمدَّها مِن الأثرِ الوارد في شأن القرآن : « لا يشبعُ منه العلماء » وفرْقٌ بيْن قراءةِ العلم قراءةَ تحصيلٍ واستحوازٍ على مقالاتِ أهلِ العلمِ وحملِها ونشرِها بالوكالة عَنهم ، واستطعام العلم .

استطعام العلم لا يُفضِي بصاحبه إلى أَن يقومَ مقامَ الحافظِ الحامل ، وإنّما يقُوم مقامَ الصّانع للمعرفةِ ، والمُخرج ممَّا كان من الأعيان ما لمْ يكنْ منهمْ ، وتلك هي المنزلة العليّة من منازل خدمة العلم وأهلِه وطلابِه .

والأمر الآخر : أنَّ هذا من النّصوص المنهجية المؤسّسة التي لا تخلق على كثرة النّظر فيها وتعمّقه ، وأنَّها كلّما زدتها نظرًا قَويمًا زادتك عطاء كريمًا ، فعطاؤها لك على قدرِ استقامةِ نظرِك وتغورِه ، واتّساعِ وعائِك (قلبِك) فأنت الّذي يُحدِّدُ عطيَّته لك ، فأكرمْ نفسَك يكرمْك . إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَتغنيتم استُغنِيَ عَنكُم .

الشّيخُ إذن لا يشبَعُ مِن قراءة مثل هذا ؛ لأنّه لا يُحاولُ تحصيلَ ما فيه من قولٍ في متن العلم ، كلاَّ ، فمثلُ هذا تكفِي فيه قراءةٌ يَقظَى واحدة من مثلِه ، ولكنّه يعرفُ رسالتَه ورسالة كلّ عالمٍ ابتلي بهذه الرِّسالة التي سَيُسأل عنها يوم القيامةِ .

هو يقرأُ لِيبصرَ منهجَ الأئمةِ في الفهمِ والتَّأويلِ ، ومنهجَهم في تعليمِنا حُسنَ النّظر في العلمِ ، ومنهجهم في أن يقومُوا لما لم يُتكلّم فيه قبلُ ، ليفتحوا إلى فهمه بابًا أوْ لِيُطَرّقوا ما بدأ بِه أحدٌ ، فسلكه إلاَّ أنّه لم يطرّق ، فيستحيلُ بفعلهم ذلِك الشَّارعُ طريقًا ، وتطريقُ ما شُرّع ليسَ أمرًا سَهلاً .

هذه دعوةٌ مِن الشيخ لمثلنا أنَّ هذا هو منهاج خدمة العلم ، وليس اجترارُ ما شاع من مقالة العلماء والاكتفاءُ بـ « الترقيع » بيْن النّصُوص المُسْتلبة مِن الكتبِ ، وكأنَّ العلمَ أو البحث العلميّ مجرَّدُ القَرن بيْن قولٍ مِن هنا وقَولٍ مِن هناك ، ولا سيما إنْ كان هذا قولاً مِن كتابٍ من عطاءِ العقلِ العربي ، وكان الآخرُ قولاً من فتاتِ موائد العقل الأعجمي ، والكَتْبُ بينهما بكَلِم لا تعدُو أن تكون تلخيصًا لِلقولِ السِّباقِ ، وتهيئة للقوْل اللحاق .

منهاج القراءة : هذا ما يتعلَّقُ بمناهجِ البحثِ عَن الحقيقةِ وتطبيقاتِها ، أمّا مِنهاج القراءةِ : قراءة البيان (النّصُوص) فإنّه يتخذُ منهاجًا له مرجعيّته في أسفارِ الأعيانِ مِن الأئمةِ ، وعلى رأسِهم جميعًا الإمامُ عبد القاهرِ الجرجانيّ (ت:٤٧١هـ) في كتابيْه وهو جدّ حفيّ بهذين الكتابين من أنَّهما كتابان يُعلمان حُسنَ النّظر قبل أن يعلما قضايا البلاغةِ ومسائلها ، فشأنُهما في علم « البلاغة » شأنُ كتاب « الرّسَالة » للشافعيّ (ت : ٢٠٤هـ) في علم أصولِ الفقهِ ، وشأنُ كتاب سِيبَوَيْهِ (ت : ١٨٠هـ) في علم « النّحو » وشأنُ كتاب « البيان والتبيين » للجاحظِ (ت : ٢٥٥هـ) في علم الأدب ، وشأن كتاب « الخصائصِ » لابن جنّي

(ت : ٣٩٢هـ)». وشأن كتاب «مقاييس اللغة» لأَبِي الْحُسَيْنِ أَحْمَدَ بْنِ فَارِسِ ابْنِ زَكَرِيّا (ت : ٣٩٥هـ) في علم معاجم اللغةِ . . .

منهاجُ قراءةِ البيانِ عنْد الشَّيخ هُوالمَنهجُ البلاغِيّ (البيانيّ) وأصولُ هذا المَنهج تتمثلُ فِي نصوصٍ مؤسّسةٍ في كتابي عبد القاهر الجُرجانيّ . ولا يتّسِع المقام هنا إلاّ إلى الإشارة إلى بعضِ هذه النُّصوصِ ، أمّا تحليلُها ، ففوق طاقةِ هذا المقام[١].

النّصوصُ المنهجيّة المؤسِّسة :

النَّصّ الأوّل قوله : «لا يكفِي في علمٍ «الفصاحةِ» أن تَنْصُبَ لها قياسًا ما ، وأن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً ، وتقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً ، بلْ لا تكونُ مِن مَعرفتها في شَيْءٍ حتَّى :

١- تُفصِّل القولَ وتُحصِّلَ .

٢- وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تَعرِضُ في نَظْم الكَلِم .

٣- وتَعُدُّها واحدةً واحدة .

٤- وتُسمّيها شيئًا شيئًا .

٥- وتكونُ مَعرفتُك معرفةَ الصَّنع الحاذق الّذِي يعلَمُ علمَ كلِّ خيطٍ مِن الإبْريسَمِ الّذي في الدِّيباج ، وكلَّ قطعةٍ منَ القِطَع المَنجُورة في البابِ المقطَّع ، وكلّ آجرّةٍ منَ الآجرِّ الّذي فِي البِناء البَديعِ»[٢].

---

(١) حاولت في كتابِي «شَرح فصُولٍ منْ كتابِ دلائلِ الإعجاز» أن أُبِين عن بعضِ مكنونِ هذه النّصُوص لطلاب الدّراساتِ العليا في جامعتي الإمام ، بالرياضِ وأم القرى بِمكةَ المكرمة . وما يزال فِي مسوّدته . ولعلّي أعمدُ إلى اسْتكمال نقصِه وتقويم عوجَه وتسديد خلله ، وتطهيرِه من الغفلةِ والجهالةِ ، ثُم تبييضه وإعداده للنشر والله المسْتعان على طاعتِه .

(٢) دلائل الإعجاز : ص : ٣٧ فقرة : ٢٩

نفَى ثلاثةً ليْست من فعلِ العقلِ البلاغي :

- أن تَنْصُبَ للفصَاحةِ قياسًا ما .
- أن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً .
- أنْ تقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً .

وأقام خمسة أصول كليّة يقوم عليها التفكيرُ البلاغيّ . وكلّ أصْلٍ من هذه الأصُول حملٌ ثقيلٌ جليلٌ .

وهي حاضرةٌ في صنيع شيخنا .

* * *

والنصّ الثاني قوله : «وجملةُ ما أردتُ أن أبينَه لك : أنَّه لا بدَّ لكلّ كلامٍ تستحسنُه ، ولفظٍ تستجيدُه ، من أن يكونَ لاستحسانِك ذلك :

- جهةٌ معلومةٌ
- وعلَّةٌ معقولةٌ
- وأن يكونَ لنا إلى العبارةِ عن ذاك سبيلٌ
- وعلى صحَّةِ ما أدَّعيناه من ذلك دليلٌ». (١)

هـذه أربْعةٌ لا يكـونُ لا سْتحسانِك قيمـةً علميـة إلا إذا ما حقَّقتها فِيـه تحقّقًا لا يَخفَى .

وهو نسقَها نسقًا متراتبًا يبنَى الثَّاني على الأوّل والثَّالث على الثّاني ، والرابِعُ على الثَّالث ، ذلك أنّـك لنْ تصلَ إلَى العِلَّةِ المعقولةِ ، وأنـت لَـم تبصـرْ جِهـةَ الحُسْن ومَخرَجَه ، ولا قيمةَ لمعرفتِك الجِهة والعلَّةَ ، وأنتَ غـيرُ مقتـدرٍ عَلَـى الإبانةِ والإفهامِ لِما عَرَفت ، وكلُّ ذلك لا قيمةَ له إذا لَم يكـنْ في يمينِـك دليـلٌ صَحيحٌ وبرهانٌ نصِيحٌ .

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ٤١ فقرة ٣٣

كذلك يبنِي عبدُ القاهر عقولَنا ، ويضبطُ حركَتها . وكذلك يصنعُ العالمُ طلاَّبَ علمِهِ

* * *

والنَّصّ الثالث قوله : « وإذ قد عرفْتَ أنَّ مدارَ أمرِ « النظْم » على مَعاني النّحو ، وعلى الوجُوهِ والفُروق التي من شأْنها أَنْ تكونَ فيه ، فاعلمْ أنَّ الفروقَ والوجوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها ، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بَعْدها .

ثم اعْلَمْ أنْ ليستِ المزيةُ بواجبةٍ لها في أنْفُسِها ، ومِنْ حيثُ هي على الإطلاق .

ولكنْ تعرضُ بسببِ المعاني والأغراضِ التي يُوضعُ لها الكلامُ .

ثم بحَسَبِ موقعِ بعضِها من بعضٍ

واستعمالِ بعضِها معَ بعضٍ »[1].

هذه الثلاثة التي يثوبُ إليْها وجوب المَزيّة للفروقِ النّظميةِّ نسقت نسقًا يبدأ من العامَّ إلى الخاصّ إلى الأخصّ .

بدأ بملاحظ المعانى الكليّة والأغراضِ الّتي يوضع لها الكلام . وهذا فيه لفتٌ إلى أهمية تحرير المعنى الأم ، الّذي تؤوب إليْه المعاني وصُورها ، وإن تباعدت منازلها من المركز في رحبة البيان الفسِيحة .

وهذا مما يغفلُ غيرُ قليلٍ عن الوفاء بحقّه .

وأنت سترى الشّيخ جدّ حفيّ بذلك الوفاء ، على نحو قد لا يتيسر لك رؤيتُه عند كثيرٍ مِن أقرانِه مِن أهلِ العلم ببلاغةِ العربيّةِ في زمانِه .

ثم يأتيك موقع الفروق بعضِها من بعضٍ .

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ٨٧ فقرة ٨٠

افهم أنّ موقعَ الأسلوب من سائر الأساليبِ هو موقِع مكانة وظيفية ، وليس موقع مكان في سياق الإبانةِ .

وهذا الموقع الوظيفيّ يمنحه مزية خاصّة لا يكون له مثلها حين يقوم في موقعٍ آخر . فالأسلوب قد يكون موقعه من سائر الأساليب التي تعاونت على تصوير المعنى موقع الرئيس ، وسائر الأساليب كالمساعد له . وهو في صُورة أخرى يقع موقعه الأسلوب المساند

ألا ترى أن أسلوب «التقسِيم والتنسيق» في سورة «والضُّحى» و«الانشراح» هوالأسلوبُ العمدة ، وسائر الأساليب تخدمه على تنوع في تنسيق المعنى في كلٍّ ؟

في «الانشراح» مفتتح به : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح:١-٤)

وهو في «الضحى» ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٦-٨) تال للوعد :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ (الضحى:٣-٥)

بينما الوعد في «الانشراح» :

﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح:٥،٦) تال للتقرير :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح:١-٤)

وفي كل كان الختام بالتكليف :

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى:٩-١١)

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ (الشرح:٧،٨)

ثم ختم عبد القاهر بقوله : «واسْتعمالِ بعضِها معَ بعضٍ»

أفهم أنه يلفتنا إلى تبصّر استعمال الأساليب مع بعضِها ، فليست هنالك صُورةٌ لمعنى مكونة من أسلوبٍ واحد ، بل كلّ صُورة هي نسيج من عدة أساليب كلّ أسلوب يمثل خيطًا في نسيج الصورة ، وهذا يستوجبُ علينا إذا ما وازنا بيْن صُورتين لمعنى عام غيرِ مصوّر أن نرصد مكونات كلّ صُورةٍ من الأساليب ، ونوازن بيْنها ، فلكل أسلوب طبيعته وتأثيره في المعنى والنفسِ التي تتلقاه .

وعبد القاهر قد وضع أيدينا على شيْءٍ من ذلك ، وهو يوازن بيْن بعضِ الصور في كتابِه دلائل الإعجاز .

* * *

والنَّصّ الرَّابع قوله : « لا فضيلةَ حتى تَرى في الأمرِ مَصْنعاً ، وحتى تَجدَ إلى التخيُّر سبيلاً ، وحتى تكونَ قد استدركْتَ صَواباً »[1] .

هذه الثلاثة : الصنعةُ والتخير وطلبة إصابة الحُسن هي التي يحقق توفيتُها الفضيلة لصَانعها . فحيثُ لا يكونُ اختيارٌ لا يكون فضل يرجع للمتكلم ، وإن كان ثَمّ فضل يرجع إلى اللغةِ نفسِها ، وحيث لا تكون صَنعةُ لا يكون فضلٌ ، وحيث لا يقصَد إلى حسنٍ يُطلب ويُسعَى إليْه فلا فضيلة ، فمَن كان همه صحة القولِ وإن كان خشنًا متوحشًا متبرمًا ، فمثله لا تكون له فضيلة .

وهذا يهديك إلى أن تبحثَ عن قدرِ ما كان فِي البيان من الاختيار ، فتقيم البدائل المُمكنة مقامَ ما جاء به البيان ، فتتوهم أنه مكان المُبين ، فتبصَّرَ ما الذي يمكنك أن تأتي به غيرالذي جاء هو بِه ، ثم توازن ، لتعلم فضله في ما أخذ وما ترك . والشيخ حفيّ بهذا في سِفره الَّذي نحنُ بصددِه .

* * *

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ٩٨ فقرة ٨٥ ، وانظر معه : ص ٢٨٦ فقرة ٣٣٥ ففيها مايقرره ويؤكده .

والنّصّ الخامس قوله :

« اعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته ، والأساس الذي وضعته ، أن أتوصّل إلى بيان أمر المعاني :

- كيف تختلف وتتفق .
- ومن أين تجتمع وتفترق .
- وأفصل أجناسها وأنْواعها .
- وأتتبّع خاصّها ومُشَاعَها .

« وأبين أحوالها في كرم مَنْصبها من العقل ، وتمكُّنَها في نِصَابه ، وقُرْب رَحِمِها منه ، أو بُعدها حين تُنسب عنه ، وكَوْنِها كالحَلِيف الجارِي مجرى النَّسَبَ ، أوْالزَّنيم الملصَق بالقوم لا يقبلونه ، ولا يمتعضون له ولا يَذُبُّون دونه..... » [1]

عبدُ القاهر بهذه الخمسة يضع يدك على مقومات عملك بلاغيًّا في أيّ بيانٍ أنت تريدُ أن تكشفَ بلاغته وأسرارها . وكلّ دراسةٍ بلاغِيةٍ لا يكونُ نصيبُها مِن هذه الخمسة وافرًا لا تكون بلاغية في شيءٍ .

وتحقيق هذه الخمسةِ من أشقِّ ما يُعانيه العقلُ البلاغيُّ في تأمّل البيان البليغ . وهو ميدانُ مفارقةٍ وسيعةٍ بيْن العقولِ والأذواقِ . سواءٌ في نوع المُمارسة أوْ مُستواها أو اطرادها . . .

* * *

(١) أسرار البلاغة ، تأليف عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، نشر دار المدني . جدة ، مطبعة المدني بالقاهرة . ط(١) عام ١٤١٢هـ ص ٢٦، ٢٧

obeikandl.com

هذه أهمُّ النُّصوص الكليّة المؤسّسة لمنهج قراءة البيان عند الشَّيخ ، وهنالك نصوصٌ أُخر تساندُها عند عبدِ القاهرِ وابن جنيّ والزّمخشري والجاحظ كلّ هذا يقُوم عليه منهاجُ القراءةِ البيانيّة عند الشيخ . وهو يصدُرُ عنها وتقوم في فعله ، وإن لم تقم كثيرًا في لفظِه ، وأنت إذْ تقرأُ بيانه عمَّا قام في صدرِه تشعرُ بأنفاسِ أولئك الأئمةِ في نفَسِه ، ولكلٍّ أرجُه وعَرفُه ومذاقُه ، فإذا أَنت في روضٍ مِعطار . لستُ هنا براكب مَتن الخيالِ ، ولكنّي مقتعدٌ مجلسَ الواقعِ الّذي لا يُمكنُ لذي نصفة أن يتوقف فضلا عن أن يتردَّد في أن يهتف : حقًّا حقًّا .

وحرِي بطلاب العلم ، ولاسيما العلم ببيان الوحي قرآنًا وسنَّة أن يكونوا أحرصَ على الجمع في قراءتهم ومدارستهم ما جاء به الأعيان في أسفارهم بيْن القضايا والمسائل العلمية ومنهج أولئك الأعيان في التفكير والتعبير وفي المدارسة لما جاء عن سابقيهم من العلماءِ ، وكيف أنَّهم كانوا أحرص على أن يتجاوزوا طور التحصيل والحمل الأمين إلى أفق استثمار ما حصَّلوا وحملوا وخدمته تقويمًا وتكميلاً وتفعيلاً .

كلُّ الأعيان من العلماء في كلّ الأعصار والأمصار المُسلمة كانت تلك صناعتهم ، فليس العالم من كان أمين خزائن علم سابقيه ، بل هو الصَّانع ممَّا جادوا به علينا ما لم يكن فيه ، فكان ذلك منهم إحياءً لما جاد به السابقون بالخبرات .

وإن العالم لا ينشرح صدرُه بعد تحقيق صفاء الإيمان بالله وتحرير طاعته من الابتداع وملاحظة الأغيار بمثل ما ينشرح بإنعام الله تعالى على علمه بطالب علمٍ ماجدٍ ينفرُ من أن يكون حامل أسفارٍ فحسب ، ويأبى إلا أن يكون شريك أشياخه في خدمة العلم وصناعته وتحقيقه وتحريره ونشره احتسابًا لرضوان الله العليّ العظيم فمثل ذلك الطالب أنفع للعالم من ولده لصلبه .

بمثل ذلك قامت الأمة في قرونها الأولى ، فلمَّا خلف من بعدهم خلفٌ عشقوا الاجترار ، وأدمنوا التكرار العقيم ، ورهبوا أن يعملوا عقولهم وقلوبهم كان الذي فيه غارقون من التبعية المقيتة لما يُنتجه غيرنا من المعرفة والثقافة ومناهج الحياة على الرَّغم من أن الله تعالى يقول لنا : ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً** ﴾ (الإسراء:٣٦) وكأنَّ هذه الآية جاءت لغيرنا ، وكأنَّا آمنَّا بأنَّا لسنا المخاطبين بها فلم تتجاوز حناجرنا . ولم يكن لعقولنا ولقلوبنا ولجوارحنا منها نصيب .

* * *

obeikandl.com